الثورة الشعبية فى القسطنطينية
سنة ٥٣٢

دكتور رأفت عبد الحميد محمد
استاذ العصور الوسطى المساعد
كلية الآداب — جامعة عين شمس

منذ انتقلت روما من على ضفاف التيبر ، الى شطآن البسفور ، أخذت حادثات التاريخ ، على امتداد ثلاثة قرون من الرابع الى السابع تنبىء بالتحول الى عصر جديد .. من عالم رومانى ، ثقافته اللاتينية ولسانه ، الى عالم رومانى اصطبغ بالصبغة اليونانية ، فكرا ولغة . بل أصبح منذ القرن السابع الميلادي وحتى الخامس عشر ، عالما رومانيا بلسان يونانى ! فقد بنيت روما الجديدة .. القسطنطينية .. فى قلب عالم اليونان ، وفيها امتزج وتفاعل تراث اليونان بخياله الواسع ، وميثولوجياه ، بمدارسه الفكرية وفلسفاته ، مع تراث الرومان بسماته العملية ونظمه ، بتشريعاته وقوانينه . هذا وذاك الى جانب العقيدة الجديدة ، المسيحية ، والتى غدت فى أخريات سنى القرن الرابع الميلادى ، على يد الامبراطور ثيودسيوس ، الدين الرسمى للامبراطورية . ومن هذا التفاعل فى بوتقة القسطنطينية ، وجدنا أنفسنا فى القرن السابع ، على أعتاب عصر جديد ، هو ما اصطلح المؤرخون على تسميته بـ « العصر البيزنطى » .

وحرص أباطرة الرومان فى القسطنطينية ، على أن لا تبدو حاضرتهم الجديدة ، أقل بهاء ورونقا ، من روما التيبر ، فالسوق والساحة والحمامات والهيدروم ومجلس السناتو ، تم تشييدها ، وان خلت روما الجديدة من

البانثيون والكابيتول ، فقد تم الاستعاضة عن ذلك بكنائس القديسين والحكمة المقدسة « أيا صوفيا » ، الى الحد الذى غدا بمقدور العابد ، على حد رواية واحد من المعاصرين ، أن يصلى كل يوم جديد ، على مدار السنة ، فى كنيسة غير التى صلى فيها بالأمس • وأزدانت المدينة بالقصور الامبراطورية الفخمة ، وبيوتات كبار النبلاء والمترفين ، حتى بهرت الباب القادمين اليها من وفود الدول الأجنبية ، والقبائل القاطنة على حدودها • واستغلت ادارة الخارجية البيزنطية هذه المظاهر البراقة فى العاصمة ، للتأثير على نفوس أولاء السفراء الساعين الى بلاط القيصر الرومانى ، للبحث عن معاهدة للسلام ، أو هدنة توقف حربا ، أو طمعا فى آقاب التشريف ، أو تطلعا الى الخلع الثمينة والهدايا من الحلى والثياب ، التى تعتبرها أولئك الشعوب المحيطة بالامبراطورية ، خاصة القبائل النازلة عند حدودها الشمالية والغربية ، نوعا من التكريم الرومانى ، يتنافس فيه المتنافسون[1] •

والى جانب هذا الثراء الذى يشع من جنبات الحى الشرقى فى القسطنطينية ، كانت هناك الأحياء الفقيرة والحارات الضيقة ، التى يقيم فيها الأدنياء من سكان العاصمة ، من العبيد وأنصاف الأحرار ، والمتسولين والعمال المؤقتين ، وعمال اليومية وصغار الحرفيين • والى جوار هؤلاء وأولئك كان هناك أبناء الطبقة الوسطى من التجار وأصحاب المهن الحرة ، كالأطباء والمعلمين الخصوصيين الذين يقومون بالتعليم بدافع من أنفسهم ، والموثقين القانونيين ، وأصحاب السفن وأصحاب البيوت التجارية ، والمثقفين [2] •

---

(١) بسط الامبراطور قسطنطين السابع هذه الأمور بصورة واضحة في كثير من فصول كتابه « عن الادارة الامبراطورية » •• راجع :
De Administrando Imperio, Cap. 43-44, 46, 50-51, 53.

(٢) راجع البحث القيم الذى نشره دكتور وسام عبد العزيز فرج ، تحت عنوان « أضواء على مجتمع القسطنطينية : دراسة فى التاريخ الاجتماعى لمدينة قسطنطين حتى نهاية القرن الحادى عشر الميلادى » ، مجلة كلية الآداب — جامعة المنصورة ، العدد الخامس ، ص ٨٣—٩١ ، ١٠١—١٠٧ •

ويصف بول ويلمان[٣] القسطنطينية فى القرن السادس فى عبارات بليغة بقوله : « ... تزدحم فيها البيوت المتلاصقة التى يسكنها خليط من الأجناس ، يتكلمون لغات مختلفة ، وغرباء يتحدثون بألسنة تختلط فيها اللاتينية باليونانية . أصحاب حوانيت ومتسولون ، عاملون وعاطلون ، أحرار وأرقاء ، شرفاء وأنذال ، مؤمنون وملحدون ، كل يمضى لغرضه عبر الشوارع الواسعة أو الأزقة الضيقة ، منهم من يعمل فى جهد ، ومن يجوب المدينة باحثا عن عمل !! » .

على أن الشيء الذى تجدر ملاحظته ، أن الفصل التعسفى الذى حاول الامبراطور دقلديانوس Diocletianus (٢٨٤–٣٠٥) تأصيله بين الطبقات فى المجتمع الرومانى ، ابان القرن الثالث الميلادى ، وذلك بمنع الانتقال من طبقة اجتماعية الى أخرى تعلوها ، لم يحقق الهدف الذى كان يرتجيه منه واضعه ، فقد كان يسيرا على ابن الفلاح أن يصبح امبراطورا ، كما استطاعت ابنة حارس الدببة أن تقفز الى العرش ، بالزواج من ولى العهد . وكان بمقدور أى شاب ماهر مغامر أن يشق طريقه الى أعلى المناصب ، بل الى العرش الامبراطورى[٤] . بحيث يمكن القول مع الدكتور وسام عبد العزيز[٥] ، ان طبقات مجتمع القسطنطينية لم تكن عبارة عن صناديق اجتماعية منغلقة على أبنائها ، فالصعود الاجتماعى أو الهبوط من والى طبقة أخرى ، كان أمرا واردا ، ذلك أن الطبقات الأفقية لمجتمع القسطنطينية كانت تتسم دائما بالقلق وعدم الاستقرار ، وأحيانا ما كان الهرم الاجتماعى لهذه الطبقات يهتز بشدة ،

---

(٣) بول ويلمان : ثيودورا ، ص ٦ . ويضيف « انها تنبسط كما لو كانت مطوتة بأذرع ثلاث .. البسفور والدردنيل والقرن الذهبى ، تتألق كأنها مرصعة بثروة العالم ، متباهية فى كبرياء ، سفسطائية .. خلابة ، وشعبها فى حركة دائمة .. وقورة محتشمة ، عابثة مستهترة ، رقيقة قاسية ، متحضرة متوحشة ص ٥ .

(٤) هسى ، العالم البيزنطى ، ترجمة رافت عبد الحميد ، ص ٣١٢ .

(٥) أورد دكتور وسام عبد العزيز ثبتا بأسماء الأباطرة البيزنطيين ، الذين يعودون الى أصول اجتماعية متواضعة أو غامضة . انظر ، مجتمع القسطنطينية ، ص ٧٤–٧٨ .

بسبب اندفاع خط عمودى يخترق الطبقات الاجتماعية الأخرى من القاعدة الى القمة ، أو نتيجة هبوط عمودى عكسى ، مما يعبر عن حالة الاضطراب وعدم الاستقرار فى المدينة ، التى تعكس الاضطراب فى الامبراطورية كلها » • لقد كانت العاصمة تعد مركز الحياة الاجتماعية والسياسية لبيزنطة ، فالذى يمتلك القسطنطينية يسود الامبراطورية[٦] • ذلك أن تلك المدينة الكبيرة ، كانت تعتبر من عدة نواح ، عالما مصغرا للامبراطورية جميعها فى كل شىء ، حتى يمكن القول انها ظلت لقرون عديدة تمثل سيادة الدولة ومكانتها وفخارها ، قوتها العسكرية وسمتها العالمى ، ثراءها وتقواها ، مجدها الأدبى وسمعتها الفنية[٧] •

مدينة على هذا النحو ، تمثل عالم الامبراطورية ، كان لابد أن تزخر بالوافدين اليها من كل أقاليم الامبراطورية ، مدنها وقراها ، بعضهم للتجارة ، وبعض ثان لمسائل قانونية ، وثالث للمتعة والسرور ، ورابع للمغامرة والبحث عن حظ لم يواته فى بلدته ، وقد عبر عن هذه الحال ، الامبراطور جوستنيان Iustinianus (٥٢٧ — ٥٦٥) فى واحد من قوانينه بقوله : « خلت الولايات من ساكنيها بينما امتلأت مدينتنا بأضداد الخلائق »[٨] • تغص بهم الشوارع والميادين منذ مطلع الشمس الى ما بعد مغربها • والمواطنون يرفلون فى ثيابهم الحريرية الموشاة بالذهب ، يمتطون صهوات جيادهم المطهمة ، يبدون فى زينتهم كما الأمراء ، ويتحركون فى وسط التجار القادمين من كل أنحاء العالم ، وصقالبة مغاورن ، وصيادون من الأرمن والاسكندنافيين ، محظوظون ، وجنود فى بزاتهم العسكرية ، وحراس من الورنك Varangian • والخزر والروس ومرتزقة من

---

(٦) هسى : العالم البيزنطى ، ص ٣١٢ •

(7) Diehl, Byzantium, Greatness and Decline, p. 95.

(8) Ius. Nov. LXXX.

اللاتين . ونساء يتبرجن فى أبهى زينة ، ليعطى هذا كله المدينة زخرفها وحياتها[٩] .

وقد ساعد على ذلك ، الموقع الممتاز الذى تقف عليه القسطنطينية ، اذ تمثل حلقة الاتصال الحضارى والتجارى بين آسيا وأوربا . فعلى شطآنها يقع طريق التجارة البحرى الذى يربط البحر الأسود وما وراءه شمالا ، وبحر ايجة فى الجنوب وما يفضى اليه ،حيث البحر المتوسط وسوريا ومصر ، وما خلفهما من تجارة الشرق الأقصى عبر البحر الأحمر والمحيط الهندى . وتحت أسوارها يمر الطريق البرى الهام الذى يصل بين آسيا الصغرى والصين عبر فارس وأوروبا ، والذى يمثل الشريان التجارى الحيوى للقسطنطينية بصفة خاصة ، اذ هو طريق الحرير القادم من الصين الى العاصمة الامبراطورية .

ومن الطبيعى والحالة هذه ، والعاصمة تموج بهذا الخليط من البشر، أن يصبح حفظ الأمن وضمان الهدوء فيها ، أمرا ليس باليسير ، خاصة بين جموع سريعة الهياج ، صخابة ، منقسمة على نفسها شيعا وأحزابا ، ما تلبث أن تنقلب — على حد قول شارل ديل Ch. Diehl من الافراط فى البهجة والأمل ، الى التخبط والتيه ، ومن اللهو الى الثورة ، ومن الشعور بالعظمة والفخار ، الى حائط اليأس والقنوط[١٠] . ووسط هذه الجمهرة من العاطلين والمتنطعين ، يمسى الولع بكل ما يسبب الاثارة شيئا مرغوبا فيه ، بل وقائما . ويجد المشاءون بالشائعات ، والقيل والقال،

---

(٩) Diehl. By zantium, p. 109. ولمزيد من التفاصيل عن هذا الخليط العجيب من بنى البشر ، الذى كانت تزخر به القسطنطينية ، وطبائع هؤلاء الناس وطرائق حياتهم ونماذج تفكيرهم ، راجع :

Downey, Constantinople in the age of Justinian, pp. 14-44.

وأيضا :

Manojlovic, Le peuple de Constontinople, Cin By zantion, XI, pp. 617-716).

(10) Byzantium, p. 109.

آذانا صاغية لدى جمهور متحفز ! عدة ما كان زعماؤهم يلتقون ابان القرن السادس تحت عقود الرواق الامبراطورى ، وفى محلات بائعى الكتب ، حيث تدور أحاديثهم حول مختلف الموضوعات ، فى الفلسفة والسياسة ، فى الطب والعقيدة ، وبأسلوب الواثق المتعصب ، مما يترك تأثيره البالغ فى نفوس سامعيه من العامة ، الذين يبلغ بهم العجب مبلغه لهذا الذى يسمعون ، وللثقة الزائدة التى يعلن بها هؤلاء المتحدثون أخبارهم ، ويعرضون من خلالها آراءهم[11] .

والقسطنطينية ، شأن روما القديمة ، والمدن الأخرى الكبيرة فى الامبراطورية ، يحرص أهلوها دوما على الاستمتاع بما يجرى فى الهبدروم Hippodrom من سباق العربات والعروض المسرحية وألعاب السيرك وألوان الرقص والغناء ، وينقسم جمهور النظارة بطبيعة الحال على نفسه لتشجيع هذا الفريق أو ذاك من المتسابقين ، بكل الحماسة والهوس المتأصلين فى جماهير هذه المدن ، والذى عهدناه على مر التاريخ البيزنطى ، ليس فى القسطنطينية وحدها ، بل فى مدن أخرى مثل أنطاكية والاسكندرية وسالونيك مثلا[12] . وكان سباق العربات أحب

---

(11) Id.

(١٢)
Cameron, Circus factions, blues and greens at Rome and Byzontium, p. 230

وقد شهدت هذه المدن العديد من حوادث الشغب ، التى عادة ما كانت تبدأ بين أنصار الفرق المتسابقة ، ثم تمتد لتشمل المدينة كلها ، معبرة دائما عن سخط الأهالى هنا أو هناك ، غالبا على السياسة الاقتصادية أو العقيدية التى تتبعها الحكومة البيزنطية ازاءهم . وكان من أشهر ما جرى فى هذا الشأن ، ما شهدته كل من أنطاكية وسالونيك فى عهد الامبراطور ثيودوسيوس (٣٧٨—٣٩٥) . وكان شغب سالونيك بصفة خاصة أخطرها على الاطلاق ، لما تبعه من وقوع المذبحة المروعة التى ذهب ضحيتها على اقل التقديرات عند المعاصرين ، سبعة آلاف شخص . عن هذه الأحداث راجع :

SOZOM. hist. eccl. VII 23-25; THEOD. hist. eccl. V 17, 19.

=

ألوان التسلية الى قلوب جمهور النظارة فى القسطنطينية وغيرها من المدن الكبرى فى الامبراطورية ، وأكثرها متعة له مواثارة ، حتى أنه كان من الأمور الطبيعية التغاضى عن الجوانب اللا أخلاقية فى طبائع المتسابقين ، من أجل الاعجاب بهذا اللاعب أو ذاك ، تشهد على ذلك حادثة سالونيك الشهيرة فى أخريات سنى القرن الرابع الميلادى(١٣) .

ولما كان كل شـوط من أشواط السباق الأربعة والعشرين ، يضم أربعة لاعبين ، فقد ميز كل منهم نفسه بلون معين ، تمثلت فى الأبيض والأحمر والأخضر والأزرق ، وبمرور الزمن واشتداد حمى التنافس بين هـذه الفرق ، قفز الى الصـفوف الأولى فريقا الزرق والخضر ، وذاعت شهرتهما على فريقى البيض والحمر ، ولا يعنى هـذا اندثار الفريقين الأخيرين ، أو تبعية أو اندماج الحمر فى الخضر ، والبيض فى الزرق ،

=

وراجع ايضـا :

Veyonis, Byzantine circus factions and Islamic futuwa organizations, pp. 49-51.

حيث يعطينا اسماء كثير من المدن التى شهدت مثل هذا الشغب فى القـرنين السادس وأوائل السـابع ، مثل مدن آسيا الصـغرى والقدس وقيسـارية فلسطين وأفاميا وانطاكية والرها وطرسوس وسلوقية . راجع ايضا :

THEOPH. Chron. I, pp. 256-257

(١٣) تعود أحداث سالونيك — كما تصورها المصادر — الى وجود علاقة آثمة بين أحد المتسابقين وواحد من غلمان بوثريك Buthericus الحاكم الجرمانى للمدينة ، والذى أمر بالقبض على اللاعب الداعر ، الا أن الجمهور طالب بالافراج عن لاعبه الأثير ، بغض النظر عن اخلاقياته ، فما رفض بوثريك الاستجابة لمطالبهم ، ذبحوه ! مما دفع الامبراطور ثيودوسيوس الى انزال العقاب الصارم بأهالى المدينة .

راجع تفاصيل هذه الأحداث ، والظروف التى احاطت بها ، ومغزى موقف الامبراطور منها ، وما ترتب على هذه الحادثة من صراع بين الدولة والكنيسة ، فى كتابنا : الدولة والكنيسة ، الجزء الرابع ، الفصل السادس .

كما يعتقد بعض المؤرخين[١٤] ، بـل ظلت الألوان الأربعة تتنافس فى الهيدروم ، وان كانت الشهرة قد أصبحت من نصيب فريقى الزرق والخضر ومن ثم انقسم الناس فى العاصمة الأمبراطورية ، وكذا المدن الكبرى ، بين هذين الفريقين • وترك التنافس الذى كان قائما بين الزرق والخضر فى المضمار ، بصماته الواضحة على مواقف المشجعين وحماستهم داخل الهيدروم فى المدرجات التى خصصت لأنصار هذا الفريق أو ذاك على جانبى المقصـورة الأمبراطورية[١٥] ، بصورة اتسـمت بالعصبية الكاملة التى وصـلت الى حد الهوس ، وطبعت العلاقات بين هؤلاء وأولئك فى الحيـاة العامة ، بقدر من العداء ، الذى بلغ فى كثير من الأحيان حـد الصراع والاقتتال فى الشوارع ، وهو ما تفيض به صفحات المصـادر التاريخية المعاصرة[١٦] • ومن هنا يصبح من الضرورى ، عند الحديث عن وقائع الشغب فى العاصـمة أو غيرها من المدن ، التفرقة بين الفرق

---

(١٤) Lindsay, Byzantium into Europe, p. 55 وللوقوف على نشأة هذه الفرق الرياضية ، وانتماءاتها الطبقية ، واهتماماتها السـياسية ، ونشاطاتها العسكرية ، واتجاهاتها العقيدية ، وصراعاتها ودورها الهام فى الحياة العـامة فى الامبراطورية ، راجـع الدراسة المتـازة التى أعـدها A. Cameron تحت عنـوان :

Circus factions, blues and greens at Rome and Byzantium, Oxford 1976.

(١٥) — لم تكن مقاعد مشجعى الزرق والخضر فى الهيدروم تتسم بالثبات على نحو دائم ، بل كثيرا ما تعرضت للتغيير والتبديل على يد هذا الامبراطور أو ذاك ، تبعـا لميله لأحـد الفريقين ، من ذلك ما اقدم عليـه الامبراطور ثيودوسيوس الثانى (٤٠٨—٤٥٠) من جعل الخضر يحتلون المقاعد الواقعة عن يسار المقصورة الامبراطورية ، بدلا من الزرق ، تكريما للخضر الذين كان هوى الامبراطور معهم . أنظر : Lindsay, Byzantium, p. 118

(١٦) انظر :

IUS. Nov. XVII, 2, 13, 15; XXIV, 1, 3; XXX, 5.

وأيضـا : PROCOP. hist. arc. VII

وكذلك : EVAG. hist. eccl. IV, 32.

الرياضية المتسابقة فى المضمار ، ومشجعيهم الذين يقفون وراءهم يناصرونهم ويؤازرون(١٧) • ومن ثم فان الحديث عن حزبى الزرق والخضر ، يعنى بصورة طبيعية أنصار هذا الفريق أو ذاك وزعماءهم •• أنصار الزرق Venetiani وأنصار الخضر Prasiniani •

وقد لعبت المصالح الاقتصادية لهؤلاء الزعماء ، والمتعارضة فى كثير من الاحيان ، ان لم يكن كلها ، دورا كبيرا فى التباعد بين الحزبين ، بحيث فرضت على هؤلاء وأولئك انتماءا طبقيا معينا من الناحية الاجتماعية، فالتجار والحرفيون والبحارة وأصحاب الحوانيت الكبيرة ، كانوا يشكلون الزعامة فى حزب الخضر ، بينما كان قادة حزب الزرق هم كبار ملاك الأراضى من الطبقة النبيلة أصحاب النفوذ والمناصب العليا فى الدولة • ولم يعد من المقبول الآن فى ضوء الدراسات الحديثة ، أن نذهب مع Monjlovic و Jarry فى تصنيف الحزبين الى فقراء Humiliores وأغنياء Potentiores ،(١٨) ذلك أنه من الممكن أن نجد جماهير العامة فى الحزبين • أما الخلاف فيكمن أصلا فى الزعامتين(١٩) ومحاولة كل منهما أن يحظى بتأييد الحكومة لمصالحه الخاصة ، وبشكل جوهرى فيما يتعلق بمسألة الضرائب •• هل تثقل بها الأراضى •• أم المدن والتجارة ؟!

(١٧) راجع : دكتور وسام عبد العزيز : مجتمع القسطنطينية ، ص ١٠٨–١٠٩ وايضا :
Cameron, Demes and factions, pp. 74-91.
Manjlovic, Le peuple de Constantinople, pp. 617-716.

(١٨) راجع :
Manjlovic, Le peuple de Constontinople, pp. 617-716.
وايضا :
Jarry, Heresies et factions, p. 283.

(١٩) دكتور وسام عبد العزيز : مجتمع القسطنطينية ، ص ١١٤ وايضا :
Lindsay, Byzantium, p. 55; Cameron, Demes and factions, pp. 74-91.

ومما يلفت النظر أن عددا ليس بالقليل من الخبراء الماليين ، كانوا ينتمون الى المناطق الشرقية ، بحكم تمرسهم فى النـواحى التجارية ، وباعتبار التجارة الشرقية بصفة رئيسية ، تمثل عصب الحياة الاقتصادية للامبراطورية البيزنطية . ولـما كان زعماء الخضر من كبار التجار الذين ينتشرون فى الأقاليم الشرقية ، فقد وجدوا عونا لهم فى كثير من الأحيان فى الادارة المالية فى العاصمة ، بينما وجد الزرق تأييدا لهم فى النبالة الرومانية المتمثلة فى أعضاء مجلس السناتو[٣٠] .

ولما كانت الامبراطورية قد غرقت حتى آذانها ، خلال القرون من الرابع الى السابع ، فى ذلك « اللابرنت » العقيدى ، على حد تعبير المؤرخ الكنسى سقراط Socrates بسبب الخلاف فى الرأى بين آباء الكنيسة حول طبيعة المسيح ، وامتزاج الفلسفات اليونانية السائدة بالعقيـدة المسيحية ، بحيث امتلأت الشوارع والأزقة بالمتحدثين فى غوامض الكلم ، كما يحدثنـا اللاهوتى الكبـادوكى الشـهير ، جريجورى النيسـاوى Gregorius Nysaeus لا فرق فى ذلك بين الامبراطور ورجل الشارع ، مرورا بالمثقفين والجهاز الادارى والجنود ، والملأ من القوم وعامتهم ، كان طبيعيا اذن — والحالة هذه — أن نضيف الى وميض الجمر بين الرماد ، ضراما يؤجج نيران الخلافات الكامنة . سـاعد على ذلك ، السيـاسة العقيدية التى انتهجتها حكومة القسطنطينية من اعتبار الارثوذكسـية

(٣٠) كان مارينوس السورى هى المستشار المالى الأول للامبـراطور انسطاسيوس ، كما كان يوحنا الكبادوكى هو وزير مالية جوستنيان ، ومما تجدر الاشـارة اليه فى هذا الصـدد ، أنه فى عـام ٤٩٨ ، أقدم الامبـراطور أنسطاسيوس على احراق السجلات الخاصـة بالضرائب ، والتى كانت فى معظمها واقعة على رءوس التجار فى المناطق الشرقية . ويعطينا يوشـع العمودى Joshua the stylite وصفا رائعا لمظاهر الفرح والسرور التى عمت أهالى مدينة الرها ، نتيجة لهذا الاجراء ، كمثال لما جرى فى كثير من مدن النصف الشرقى من الامبراطورية . أنظر :

IOSH. Chron. p. 22.

وايضـا : MALALAS, Chron. p. 400

الخلقيدونية ، الدين الصحيح ، وما عداها زيغ وهرطقة يجب القضاء عليها • ولما كانت جل ، ان لم يكن كل هذه الآراء المعارضة قادمة من الولايات الشرقية ، فقد أصبحت بالتالى معتقد التجار والحرفيين وأصحاب الحوانيت ، الذين يشكلون فى زعامتهم حزب الخضر •

على أن الأمر الذى تجدر الاشارة اليه ، أن هذا لا يعنى أن تكون الطبقة العليا والنبالة الرومانية فى القسطنطينية ، هى التى تمثل الأرثوذكسية الخلقيدونية ، وأن الطبقتين الوسطى والدنيا وحدهما تؤمنان بالمونوفيزية ، وأن أصحاب هذه العقيدة يمثلون دائما المعارضة الحقيقية للسلطة الامبراطورية • فالقسطنطينية كانت تمتلىء بالعمال والموظفين والتجار والحرفيين ، الذين يعتمدون بصفة أساسية فى مصدر رزقهم على ما يمدون به القصر والكنيسة من منتجات معينة ، ومن ثم لم يكن الخضر فى المدينة — على حد تعبير Lindsay أقل تحمسا للمونوفيزية من الخضر فى أنطاكية مثلا[٢١] • والذين ثاروا فى وجه الامبراطور أنسطاسيوس ، المعروف بميوله المونوفيزية الواضحة ، وتأييده للخضر ، كانوا هم الخضر والزرق معا !! ومع تحيز الامبراطورة ثيودورا ، زوج جوستنيان ، للخضر ، الا أن وقوفها الى جانب الزرق أحيانا كان يبدو واضحا[٢٢] ، هذا اذا أخذنا بحديث المؤرخ بروكوبيوس دون مناقشة •

وفى دراسة رائعة أعدها A. Cameron [٢٣] ، راح يناقش آراء المؤرخين التقليدية القائلة بأن الزرق هم الأرثوذكس وأن الخضر هم المنافزة • ويذكر أن الخلافات العقيدية لم تلعب أى دور فى المنافسة بين الفرق الرياضية المتسابقة فى المضمار ، ويلقى باللوم على هذه الدراسات التى تؤكد بصورة قاطعة ، دون حساب أى عامل آخر ، على التوافق الكامل عند الأباطرة ، بين الميول العقائدية والانتماءات الحزبية

---

(21) Byzantium into Europe, p. 56.
(22) PROCOP. hist. arc. X, 16-18.
(23) Heresies and factions, pp. 92-120.

ويذكر أنه من بين خمسة عشر امبراطورا بين ثيودوسيوس الثانى ، وهرقل Heraclius (٦١٠ — ٦٤١) ، كان هناك أربعة يؤيدون الخضر هم ثيودوسيوس الثانى ، وزينون Zino (٤٧٤ — ٤٩١) وموريس Mauriceus (٥٨٢ — ٦٠٢) وهرقل • وثلاثة يناصرون الزرق ، هم مارقيان Marcianus (٤٥٠ — ٤٥٧) وجوستنيان Iustinianus (٥٢٧ — ٥٦٥) وفوقاس Prasiniani (٦٠٢ — ٦١٠) •

ليس هناك اذن ما يدعو الى الاصرار على التصنيف الطبـــقى أو العقيدى فى تفسير حوادث الشغب التى كانت تجرى فى الهبدروم بين أنصار الزرق Venetiani وأنصار الخضر Prasiniani ما دامت جموع هؤلاء الأنصار كانت توجد على اتساع طبقة العامة ،وأن الخلاف كان واضحا بين زعماء مؤيدى الفريقين • فاذا ما حد ثواتحدت جماهير العامة ، كما جرى فى ثورة نيقا Nika عام ٥٣٢ فى القســطنطينية ، فان هذا يعنى أن الأمر لم يعد بيد زعماء الحزبين ، وأن الثورة لم تعد موجهة فقط ضد الحكومة ، بل ضد الطبقة الحاكمة نفسها[٢٤] ، بل قد يكون ذلك ضد النظام القائم برمته •

والبيزنطى بما اشتهر عنه من ولع بالمناقشات العميقة ، حتى صارت هذه تضرب مثلا لكل جدل عقيم ، وجد متنفسا متسعا له فى الهبدروم ، ليس فقط فى مشاهدة السباق ، المحبب الى قلبه ، أو العروض المسرحية ، أو ألعاب الحواة ، أو ألوان الرقص والغناء — كما أســلفنا ، بل فى المناقشات التى كانت قد أصبحت شيئا تقليديا فى الهبدروم ، الذى كان فى القسطنطينية لا يقل شأنا عن القصر المقدس أو كنيسة الحكمة المقدسة، أيا صــوفيا • لقد كان — حســب تعبير شــارل ديل — بؤرة الحيــاة

---

(٢٤) دكتور وسام عبد العزيز ، مجتمع القسطنطينية ١١٤—١١٥ وأيضا
Lindsay, Byzantium, p. 56; Cameron, Circus factions, p. 278.

البيزنطية[٢٥] ، بعد أن أصبح من الأمور العادية ، منذ زمن أوغسطس Augustus ، بل من الأمور الشائعة أن يقدم الناس الى الامبراطور التماساتهم فى الهبدروم ، وكان على الامبراطور أن يجيب عليهـا . وما دامت المطالب تقدم بصورة عامة على هذا النحو ، أمام جمهـور النظارة الكبير ، فلابد أن تكون مطالب سياسية ، أو تتعلق بالنظام القائم . وهنا .. لا يوجد أدنى شك فى أنه كان على الامبراطور أن يواجه شعبه فى كل المسائل ، كبيرة كانت أم صغيرة[٢٦] .

ولا ريب أن التحول السياسى الكبير الذى شهدته روما ، انتقـالا من الجمهورية الى الامبراطورية ، قد ترك بصماته واضحة فى هـذا المجال ، ذلك أن المناقشات الرائعة التى شهدتها قاعة مجلس السناتو ، خاصة خلال النصف الثانى من القرن الثانى ، وعلى امتداد القرن الأول قبل الميلاد ، راحت تنحسر تدريجيا بمقتضى السلطات التى خلعها السناتو على أوكتافيانوس Octavianus ، باعتباره منقذ الجمهورية الرومانية من أعدائها . ولمـا لم يكن خلفاء أوكتافيانوس أوغسطس بأقل منه حرصا على التمسك بهذه السلطات ، فقد تولى السناتو الى الظل ، وأمسى على حد قول مؤرخ القرن السادس ، بروكوبيوس ، مجرد « صورة معلقة على جدران الزمن !! »[٢٧] . وانتقلت اختصاصاته ، رغم أنف أعضائه ، وخاصة اختيار الامبراطور ، الى أيدى الجيش الذى أصبح يمثل مركز

---

(٢٥) Byzantium, Greatness and Decline, p. 108.
ويقول فازيلييف نقلا عن « أوسـبنسكى » كان المضـمار هو المكان الوحيد للتعبير الحر عن الرأى العام ، الذى كان يفرض نفسه أحيانا على الحكومة » . انظر :

Vasiliev, history of the Byzantine Empire, I, p. 155.

(26) Cameron, Circus factions, p. 162.

(27) PROCOP. hist. arc. XIV, 10.

القوة الرئيسية فى الامبراطورية[٢٨] • وتجلى ذلك بصورة واضحة خلال أزمة القرن الثالث الميلادى ، التى امتدت ما بين عامى ٢٣٥ــ٢٨٤ للميلاد[٢٩] ، حيث فقد السناتو أهميته تماما ، ولم يعد له أى دور فى الحياة السياسية فى الامبراطورية[٣٠] ، وظل هذا حاله حتى النصف الثانى من القرن الخامس الميلادى ، عندما حاول أن يصحو من سباته الطويل ، ليشارك بقدر معين فيما يجرى على خشبة المسرح السياسى الرومانى فى القسطنطينية •

ومن هنا وجد أهالى القسطنطينية فى الهبدروم ، بفرقه الرياضية ، متنفسا طبيعيا يمارسون من خلاله مناقشاتهم ، ويعبرون عن آرائهم فى السياسة والاقتصاد ، أو بمعنى أكثر دقة ، الضرائب والعقيدة • خاصة عندما راح دور الجيش فى اختيار الأباطرة يتقلص هو الآخر تدريجيا ، بتأثير النظام السياسى الذى وضعه الامبراطور قسطنطين فى ثلاثينيات

---

(٢٨) كان هذا واضحا منذ عام ٦٩ للميلاد ، وهى السنة الشهيرة للاباطرة الأربعة ، التى أعقبت وفاة الامبراطور نيرون Nero (٥٤ــ٦٨) ، وهى التى علمت الجيش أنه من الممكن أن يوجد الامبراطور فى أى مكان خارج روما • وان كان العسكريون لحسن حظ الامبراطورية ، لم يستغلوا هذه الفرصة لمدة مائة عام تالية • حتى اذا كان عهد سبتميوس سفروس Septimius Severus نصح ابنه عندما حضرته الوفاة .. قائلا : « أجزل العطاء للجند ولا تلق بالا للآخرين » • راجع :

Jones, Constantine and the Canversion of Europe, P. 2.

(٢٩) للمزيد من التفاصيل عن أحداث هذه الفترة ، راجع للباحث : الدولة والكنيسة .. الجزء الثانى ، الفصل الأول •

(٣٠) راجع الفصل الممتاز الذى كتبه المؤرخ جونز A. H. M. Jones عن السناتو فى القسطنطينية وذلك فى كتابه :

Later Roman Empire, II, pp. 523-562.

القرن الرابع الميلادى[٣١] .

ولا شك أن الممارسة العملية التى باشرها الرومان ، سواء فى روما القديمة ، أو سميتها الجديدة ، فى الهبدروم ، ابتداء بعصر أوغسطس ، ومرورا بالأباطرة جايوس Gaius ونيرون Neron وكومودوس Commodus وغيرهم ، وصولا الى انسطاسيوس Anastasius فى أوائل القرن السادس الميلادى ، والتى تمثلت معظمها فى الاحتجاج الصارخ فى المضمار ، على التعسف فى تقدير الضرائب وجبايتها ، والمناداة بضرورة اتباع سياسة معتدلة بين الأحزاب السياسية ، حتى وصل الأمر الى المطالبة بخلع الامبراطور نفسه ، كما جرى لأنسطاسيوس وجوستنيان . كل هذا يعد دليلاً على الأهمية البالغة التى كان يدركها الناس والأباطرة لما يجرى فى الهبدروم[٣٢] .

فى ضوء هذه الأمور يمكن أن ندرك ما جرى فى عام ٥٣٢ على عصر الامبراطور جوستنيان . لكن مجريات الأحداث ووقائعها التى امتدت

---

(٣١) يذكر المؤرخ نورمان بينز N. Baynes ان اختيار الامبراطور كان يمر بأربعة أدوار ، الأول حين ينادى السناتو الرومانى أو الجيش بوضع المرشح فى وضع « دستورى » يجعله فى مكان الامبراطور المنتظر ، والثانى ، موافقة الطرف الآخر وهو المرشح ، على ذلك الترشيح ، والثالث .. التصديق على هذا الاختيار حين يهتف الشعب الرومانى «فى الهبدروم» بحياة الامبراطور . أما الرابع فهو تتويجه على يد بطريرك القسطنطينية ، باعتباره ممثلاً للناخبين لا الكنيسة . وقد جرى التقليد بذلك وان لم يكن اساسيا الالتزام بهذه الأدوار . راجع بينز : الامبراطورية البيزنطية ، ترجمة دكتور حسين مؤنس ، ص ٨٠ . وكان ليو الأول هو أول امبراطور يجرى تتويجه عام ٤٥٧ على يد بطريرك العاصمة .

(٣٢) يتضح هذا المعنى تماما فى عبارات المؤرخ اليهودى يوسفوس ، التى يصف بها الأحداث التى وقعت فى يناير عام ٤١ للميلاد ، قبل مقتل الامبراطور جايوس بأسابيع قليلة . ويبين لنا من تاريخها المبكر ، مدى الدور الذى لعبه الهيدروم بصورة مطردة فى الحاة السياسية فى الامبراطورية . راجع :

Cameron, Circus factions, pp. 162-163.

ثمانية أيام (١١ـــ١٨ يناير) وما صحبها ، وما لحق بها ، يجعلنا نرى فيها شيئا يختلف عما شهدته القسطنطينية من قبل ومن بعد •

ففى يوم الأحد •• الحادى عشر من يناير ، جرى السباق فى الهبدروم ، كما جرى التقليد بذلك ، حتى اذا كانت الاستراحة التى أعقبت الشوط الثانى والعشرين ، واقترب السباق من نهايته ، ولم يبق منه الا شوطان ، ارتفع صوت من بين مقاعد الخضر يلتمس من الامبراطور ، الذى كان يتخذ مجلسه فى المقصورة Kathisma ، رفع الظلم الذى أوقعه بهم واحد من رجاله يدعى كالوبوديوس Calopodius وأنكر المتحدث باسم الامبراطور ذلك ، بل أنكر أن يكون هناك أحد فى حاشية الامبراطور يحمل هذا الاسم ! واتهم الخضر بأنهم لم يأتوا الى الهبدروم لمشاهدة السباق ، بل للتطاول على سلطان الحكومة • وناداهم بأنهم يهــــود •• سامريون •• مانويون ، ليزداد بذلك غضب الخضر ويزداد صياحهم ، فى أغرب حوار جرى بين حاكم ورعيته ، سجله لنا بقلمه المؤرخ ثيوفانس[٣٣] Theophanes كاملا •• نقف منه على مدى ما يكنه الخضر للسلطة الحاكمة من كراهية ، وذلك نتيجة لاتخاذها جانب الزرق ، حتى « أعتبر هؤلاء أنفسهم — بتعبير بروكوبيوس — فوق القانون ، واكتسبوا وضعا خاصا فوق الجموع بانتسابهم الى العــرش » • ويضيف مؤرخنــا بروكوبيوس فى عبارات قاطعة : « ان تأييد جوستنيان لحزب الــزرق جعل الدولة الرومانية تجثو على ركبتيها لتخر راكعة كما لو كان قد هزها زلزال ، أو اجتاحها طوفان ! كما لو كانت كل مدينة من مدائنها قد سقطت فى يد العدو • لقد انقلب كل أمر الى فوضى ، ولم يعد شىء على حاله ! لقد ديست القوانين ، ولم يعد للنظام أى وجود »[٣٤] •

وقد بلغ الحنق بالخضر فى الهبدروم مبلغه ، عندما وقف زعيمهم

(33) THEOPH. chron. I, pp. 278-282.

(34) PROCOP. hist. arc. VII.

يصيح قبالة المقصورة الامبراطورية ، : « ألا ليت ساباتيوس Sabbatius لم يولد أبدا»[٣٥] Utinam Sabbatius nusquam fuisset natus والعبارة على هذا النحو موجهة الى الامبراطور مباشرة ، ذلك أن ساباتيوس هذا هو والد جوستنيان !! والابن •• هو بطرس ساباتيوس ، فلما قدم خاله جوستين Justinus الى العاصمة ، وترقى فى سلك المناصب حتى أصبح لدى الامبراطور أنسطاسيوس ، مكين أمين ، استدعى اليه ابن أخته بطرس هذا ، وخلع عليه لقبه الذى عرف به فى التاريخ •• جوستنيان ، نسبة الى الخال • وكانت هذه العبارة لطمة وجهت الى الامبراطور مباشرة ، اذ يتمنى أصحابها من خلالها ، لو لم يأت جوستنيان الى الحياة على الاطلاق !!

واستمر الحوار عنيفا بين المتحدث باسم الامبراطور ، وزعيم الخضر ، ليفصح عن مدى المعاناة والضجر الذى يستشعره الخضر من سياسة الحكومة تجاههم ، وتجاهلهم لمطالبهم ، ووقوفها بصورة سافرة الى جانب أعدائهم الزرق • وقد اتضح خلال الحوار ، عندما شارك زعماء الزرق فيه ، مؤيدين المتحدث باسم الامبراطور ، منادين على خصومهم بألقاب تحمل طابع الامتهان والسخرية ، تصمهم بأنهم : « لصوص •• خونة •• يهود •• أعداء الله »[٣٦] •

لم يجد الخضر بدا وقد أحيط بهم ، الا أن يصيح زعيمهم ، ميمماً وجهه شطر المقصورة الامبراطورية ، سوف نصمت أيها الامبراطور ، مادمت تريد ذلك ، لكنه صمت الكارهين لا المقتنعين ، اننا نفضل أن نكون يهودا ، على أن نكون من الزرق !! واأسفاه على عدالة أمست ميتة ، يوارى جسدها التراب » !! ثم ولى الهيدروم دبره وغادره ، وتبعه على الفور جموع الخضر ، وكان هذا التصرف فى حد ذاته ، صفة قوية وجهت للامبراطور ، حيث تقضى التقاليد بألا يغادر أحد المضمار قبل انصراف الامبراطور ، معلنا نهاية السباق فى هذا اليوم •

---

(35) THEOPH. Chron. I, p. 281.
(36) Ibid, p. 282.

تملك الغضب على جوستنيان كل سبيل ، ازاء هـذه الاهانة التى لحقت به ، وانعكس هذا فى الاجراءات الصارمة التى أقدم عليها والى المدينة يودايمون Eudaemon ، حيث ألقى القبض على سبعة من مثيرى الشغب ، وتم على الفور ودون ابطاء ، قطع رءوس أربعة منهم ، وقضى على الثلاثة الآخرين بالاعدام شنقا ، واقتيدوا الى ساحة الاعدام، وعلقوا على المشانق •• لكن يبدو أن الحبال كانت قد بليت ، فسقط اثنان منهم على الأرض أحياء ، وفشلت محاولة أخرى لتنفيذ حكم الاعدام من جديد • وكان هذا يعنى حسب التقاليد ، أن يحظى الرجلان بالعفو • ولم تفلح محاولات الوالى لاعادة تجربة الشنق من جديد ، ازاء الهياج العام من جانب الجموع التى اكتظت بها الساحة ، وازاء تدخل رهبان دير القديس كونون Conon الذين اقتحموا المكان واصطحبوا الرجلين الى كنيسة سان لورنس St. Laurentius ، فلم يسع الوالى الا أن يأمر جنوده بحصار الكنيسة[٣٧] •

ويعتقد كثير من الباحثين الذين تصدوا لمعالجة هذه الأحداث ، أن الصدفة وحدها لعبت دورا كبيرا فى أن يكون أحد الرجلين اللذين نجيا من الاعدام ، منتميا الى حزب الزرق والآخر الى حزب الخضر ، وأن والى المدينة الصارم يودايمون ، قد ألقى القبض على هؤلاء السبعة اعتباطا ، دون النظر الى هوياتهم ! وأن « الصدفة » هـذه هى التى قربت بين الفريقين ، فأشعلا تلك الثورة المدمرة فى القسطنطينية ، أو بتعبير أدق « البدايات الأولى لثورة عارمة • غير أننا لا يمكننا أن نقبل هكذا دور « الصدفة » وحدها ، وترتب عليها أحداثا جساما كتلك التى شهدتها المدينة ما بين الحادى عشر والثامن عشر من يناير عـام ٥٣٢ ، وكادت تؤدى بالنظام الحاكم كله •

فالمؤرخ القيسارى بروكوبيوس ، الذى ذكر لنا فى « تاريخه السرى » أن الامبراطور جوستنيان ، قد أخذ جانب الزرق ، وترك لهم

(37) MALALAS. Chron. pp. 473-474.

الحبل على الغارب ، فعاثوا فى الامبراطورية فسادا[٣٨] « كما لو كان قد هزها الزلزال ، أو اجتاحها الطوفان » ، هو نفسه الذى يذكر ، وفى الموضع نفسه ، أن أنصار الزرق قد ميزوا أنفسهم بسحنه وأردية معينة بحيث أصبحوا يشبهون الى حد كبير ، قبائل الهون Hunni الاسيوية، التى اكتسحت الامبراطورية فى القرنين الرابع والخامس الميلاديين[٣٩] . ومن ثم فلا مجال هنا « للصدفة » فى القبض على رجل من الزرق ، الى جانب من تم القبض عليهم من الخضر . وبروكوبيوس نفسه أيضا ، هو الذى نعرف من حديثه ، أن جوستنيان وزوجه ثيودورا ، قد اتبعا سياسة وسطا بين الحزبين[٤٠] ، ذلك أن الامبراطور اذا كان قد اعتمد فى بداية عهده على مناصرة الزرق ، ليضمن تأييدهم، فان سياسته قد سادت من بعد ، كما تدلنا الأحداث ، على اقرار التوازن بين الزرق والخضر ، امتدادا للسياسة التى اتبعها من قبل خاله جوستين[٤١] . كما أن التشريعات التى أصدرها الامبراطور خلال السنوات الخمس الأولى من عهده ، تعطينا فكرة واضحة عن السياسة التى سوف يتبعها جوستنيان ، فى ادارة شئون الامبراطورية ، والتى تهدف فى جوهرها ، الى فرض قبضته القوية على الدوله . ولذا .. فان ما فعله يوديمون لم يكن وليد « الصدفة » ، بل كان تنفيذا لرغبات الامبراطور ، وتمشيا مع السياسة العامة التى وضعها جوستنيان ، والا فبم نفسر انزال العقاب الصارم بالفريقين معا ؟! ورفض الامبراطور ملتمس الزرق والخضر بالافراج عن الرجلين والعفو عنهما ؟! وقبل هذا وذاك .. كيف يمكن تفسير اتحاد الحزبين معا فى اليوم التالى مباشرة لهذه الواقعة ، واستمرار الوفاق

---

(٣٨) لقى كاللينيكوس Callinicus حاكم كيليكيا حتفه ، لاقدامه على اعدام اثنين من القتلة ومثيرى الشغب فى اقليمه ، ينتميان الى حزب الزرق . انظر :

PROCOP. hist. arc. XVII; EVAG. hist. eccl. IV 32.

(39) PROCOP hist arc. VII 8-14.

(40) Ibid. X, 16-18.

(41) THEOPH. Chron. pp. 256-257.

بينهما حتى اليوم الأخير للثورة ؟! الى الحد الذى دفع المؤرخ بيورى[٤٢] Bury ، الى القول باحتمال وجود تنسيق مسبق بين زعماء الفريقين •

انقضى يوم الاثنين ، الثانى عشر من يناير ، فى هدوء مشوب بالقلق كذلك الذى يسبق العاصفة ، ثم أعلن عن استئناف السباق فى اليوم التالى ، فى محاولة من جانب الامبراطور ، لتهدئة الأمور ، وحتى تبدو وقائع اليوم الأول ، الأحد ، أمرا عاديا ، كثيرا ما يحدث ، واتخذت الحكومة ، ممثلة من والى المدينة يودايمون ، الاجراءات الكفيلة بالتصدى لمثل هذا الشغب • ولم يكن الامبراطور يدرى أن الأمور سوف تسير على هذا النحو فالجنود يحاصرون كنيسة القديس لورانس ، وأنصار الفريقين فى المضمار يلحون على الامبراطور فى مقصورته ، أن يأمر باخلاء سبيل الرجلين ، وجوستنيان يصم أذنيه عن هذه الصيحات •• ويتساءل « باكر » Baker وفى تساؤله جانب كبير من الصحة •• هل كان من السهل على الامبراطور أن يفعل شيئا فى أمر رجلين نظر القضاء فى حالهما ؟ وهو يعلم أن استجابته لمطالب المجموع تعد اعتداء على العدالة وتدخلا فيها لغير سبب مقبول[٤٣] • ولم يكن جوستنيان راغبا فى ذلك ، بل هىء له أن الأمر قد أصبح بيديه ، بعد القبض على رءوس الفتنة ، وأنه بهذا الاجراء يؤدب الحزبين معا •

ومع اقتراب أشواط السباق من نهايتها ، صمت الناس عن توجيه أى شكايات للامبراطور بشأن الرجلين ، بعد أن يئسوا من رحمته ، ولم يعد يسمع الهتاف التقليدى بحياة الامبراطور ، بل ارتفع صوت الجموع يهتف بحياة « الزرق والخضر والرحماء »[٤٤] ، ليعلن بذلك عن مولد الاتحاد بين الحزبين Prasinovenetai وانفجار الثورة الشعبية فى

---

(42) Later Roman Empire, II, p. 40.

(43) Baker, Justinian, p. 84.

(44) MALALAS, Chron. p. 474.

القسطنطينية ، حيث اندفع أنصار الفريقين الى المقر الرسمي لوالى المدينة ، وطالبوا من جديد باطلاق سراح الرجلين ، فلما لم يجدوا سميعا لهم ولا مجيبا ، هاجموا المبنى وأخلوا سبيل من به من المسجونين ، وأشعلوا فيه النيران ليلقى الموظفون بداخله مصرعهم ، ولتمتد النيران الى المبانى الحكومية المجاورة[٤٥] ، ولتلتهم فى طريق سعيرها ، المدخل الرئيسى للقصر الامبراطورى ، وحماما تزيوكسيبوس Zeuxippus ومبنى مجلس السناتو وكنيسة أيا صوفيا[٤٦] • واتفق الثائرون على اتخاذ كلمة Nika « النصر » شعارا لهم ، يتعارفن به فيما بينهم[٤٧] •

ومن الطريف أن الامبراطور أمر باستئناف السباق فى اليوم التالى ، الاربعاء الرابع عشر من يناير ! ، كأن شيئا لم يكن ، رغم أنه لم يكن بغافل عن خطورة الموقف فى العاصمة ، التى أكلت النيران أهم وأفخم مبانيها • ولعل جوستنيان كان يريد أن يظل حتى آخر لحظة متمالكا لنفسه ، باديا أمام الجميع وكأن الأمور مازالت ملك يمينه • وكان من الممكن أن ينجح جوستنيان فى تأكيد تصوره هذا ، لو أن مجريات الأحداث جاءت كما اعتادتها القسطنطينية من قبل مرارا ، وما شهدته من بعد على امتداد تاريخها • لكن الأمور أفلتت الآن من أيدى زعماء الحزبين الزرق والخضر ، ولم تعد الأحداث مجرد شغب فى المضمار تعداه الى الشوارع • بل أصبحت تمثل ثورة حقيقية ، تمثلت فى مطالب الثائرين الذين تقدموا للامبراطور يطلبون اليه عزل والى المدينة يواديمون ، والنائب الامبراطور والمستشار المالى يوحنا الكبادوكى ، والمحامى والفقيه تريبونيان •

وقد يكون من المنطقى مع الأحداث ، المطالبة بعزل يودايمون الوالى الصارم ، باعتباره السبب الرئيسى فى اثارة هياج الزرق وانضمامهم الى

---

(45) PROCOP. bel. Pers. XXIV.

(46) Id.
وايضا : ZONAO. epit. XIV, 6.

(47) Id.

أعدائهم الخضر ، وجريا على سياسة الزرق فى التخلص ممن يقفون حجر عثرة فى سبيل اطلاق أيديهم فى العبث بالأمن العام ، كما جرى مع كاللينيكوس Callinicus حاكم كيليكيا(٤٨) • أما أن يضاف اليه يوحنا الكبادوكى وتربونيان ، فهذا هو الذى يضع أمام الأذهان علامة استفهام كبيرة ، سوف نعود الى بحثها ، بعد أن نعيش مع الثورة وقائعها •

تيقن لدى جوستنيان خطورة الموقف الآن تماما ، وتردى الأحوال فى العاصمة ، وعجز جهازه الادارى عن مواجهة هذه الاضطرابات التى راحت تزدد تفاقما ، وأمل فى أن تجد استجابته لمطالب الثائرين ، منفذا للخروج من هذه الأزمة ، ولو الى حين ، خاصة بعد أن جاءته التقارير التى كان حريصا على الاطلاع عليها بنفسه ، تفيد بأن المعتدلين الذين أبدوا تحفظهم ازاء هذه الأحداث حتى الآن ، قد أظهروا عداءهم علانية تجاه الحكومة ، بينما آثر آخرون ممن كان يؤمل وقوفهم الى جانبه ، الهروب بأنفسهم عبر البسفور الى الشاطىء الآسيوى المقابل ، ووجهت الدعوة من جانب زعماء العامة لعقد اجتماع فى ساحة قسطنطين ، أيدهم فى تلك الدعوة عدد من الشخصيات البارزة من النبلاء ورجال السناتو ، حيث جرت مناقشة وتقييم للموقف ، وتمت الموافقة فى هذا الاجتماع على خلع الطاعة للحكومة ، بل تطور الأمر الى الاقتراح بعزل جوستنيان واعلان بروبوس Probus أحد أبناء أخى أنسطاسيوس ، امبراطورا(٤٩) وقد وضع هذا الاقتراح على الفور موضع التنفيذ ، فاتجهت الجموع الى دار بروبوس لرفعه مكانا عليا ، غير ان الرجل آثر السلامة ، وفضل الهرب على المنصب فجزاه العامة على ذلك بأن قدموا داره للنيران قربانا !

لم يتردد جوستنيان لحظة فى الاقدام على عزل الرجال الثلاثة ، كى يهدىء من ثائرة الثائرين ، غير أن ذلك كله لم يجد نفعا ، ورغم أنه

---

(٤٨) راجع حاشية رقم ٣٨ •

(49) CHRON. PASCH. an. 532.

عين البطريق غوقاس Phocas نائبا امبراطوريا بدلا من يوحنـــا الكبادوكى ، وباسيليدس Basilides فى منصب الكويستور ، ورغم أن الرجلين مشهود لهما بالكفاءة والاقتدار والنزاهة ، الا أن هذا التعيين لم يغن — حسب تعبير بروكوبيوس — عن الامبراطور شيئا[٥٠] ، اذ يبدو أن الامبراطور لم يفطن الى محاولة الثائرن اعلان بروبوس امبراطورا ، وأن التنازلات التى قدمها ، لابد أن تأتى بمزيد من التنازلات. لكن الذى لا شك فيه أن التحدى أصبح سافرا بين الحكومة والثائرين ، وراحت تتكشف رويدا رويدا نيات زعماء الثائرين الآن، والذين لم يعودوا هم زعماء حزبى الزرق والخضر ، بل غدوا من « الشخصات البارزة من النبلاء ورجال السناتو » ، وآمن جوستنيان مؤخرا أن سبل السلام لم تعد تفلح مـع أناس يطلبونه شخصيا ، ووضع الرجل — كما يقول باكر[٥١] مشروعاته وطموحه فى كفة ، والثائرين فى كفة أخرى .. وراح يتساءل ان كانت هذه الآمال تستحق أن يحارب من أجلها ؟ هل تستحق أن يدافع عنهـا بالعنف والدماء ؟ هل كانت أهدافه خيرة الى الحد الذى يمكن أن يسحق فى سبيلها العديد من الرجال ؟

مما لا ريب فيه أن جوستنيان كان يعتقد اعتقادا جازما فى خيرية مشروعاته الطموحة ، لصالح دولته ، لذا صمم على اخماد الثورة بالقوة ، فأصدر أوامره الى قائده بليزاريوس Blisarius بالقضـــاء على الثائرين وأشرك معه أيضا القائد موندوس Mundus بقوات من القوط والهيروليين ، وشهدت العاصمة خلال الأيام الثلاثة التالية ، الخامس عشر والسادس عشر والسابع عشر من يناير ، حربا أهلية طاحنة ، بين قـــوات بازاريوس وموندوس من ناحية ، والثائرين من ناحية أخرى ، وازدادت الحرائق فى المدينة، فأتت على كنيسة القديسة ايرين ومستشفى سامبسون ، وفشـــلت المحاولات التى بذلها رجال الأكليروس للحيلولة

(50) PROCOP. bel. Pers. I, XXIV.

(51) Baker, Justinian, p. 49.

دون اتســـاع نطاق هذه الحرب • وأيقن بليزاريوس أنه لن يســتطيع الوصول الى نتيجة حاسمة فى هذا الصراع ، بعد أن أدرك أنه لا يحارب أنصـــار الزرق والخضر فقط ، بل قوى عديدة مسلحة لم يكن يتوقع مواجهتها • ومن ثم آثر الانسحاب من شوارع القسطنطينية ، والعودة ثانية للاحتمـاء بالقصر الامبراطورى ، فأمســت المدينة فى قبضــة الثائرين[٥٢] •

وأمام هذه الفوضى ، راح جوستنيان يراجع حساباته من جديد وخاصة بعد أن خذله الحرس الامبراطورى Excubitors وآثر أن يظل على الحياد[٥٣] ، وانتابت الامبراطور حالة من الشك فيمن حوله ، وقر لديه أن هناك مؤامرة تحاك خيوطها على نطاق واسع من جانب قــوى متعددة تضمر له السوء[٥٤] ، ولمــا كان القصر الامبراطورى يحوى ضمن من لجأوا اليه هروبا من الفوضى ، عددا ليس بالقليل من أعضاء مجلس السناتو ، بالاضافة الى هيباتيوس Hypatius وبومبى Pompeius ولدى أخ الامبراطر الأسبق أنسطاسيوس ، فقد خشى جوستنيان أن يكون هناك اتفاق سرى بين هؤلاء جميعا ، وزعماء الثائرين فى العاصمة ، ولم لا ، وقد أقدم الثائرون منــذ ثلاثة أيام فقط على محاولة اعــلان بروبوس امبراطورا بديلا ؟ ! ولذا فانه فى مساء يوم السبت ، السابع عشر من يناير ، استدعى اليه الأميرين ورجال السناتو المحتمين به ، وطلب اليهم مغادرة القصر الامبراطورى على وجه السرعة[٥٥] • وذهبت سدى توسلات هباتيوس وبومبى بالابقاء عليهما الى جوار الامبراطور ، حتى

(52) PROCOP. bel. Pers. I; XXIV; MALALAS, Chron. p. 475.

وأيضــا :

ZONAR. epit. XIV, 6; CHRON. PASCH. an. 532.

(53) PROCOP. bel. Pers. I, XXIV, 45.

(54) MARC. COMES, an. 532.

(55) PROCOP. bel. Pers. I, XXIV, 19.

لاينتهز الثائرون هذه الفرصة ، وأوضحا للامبراطور خشيتهما من أن يكرههما العامة على اعتلاء أحدهما العرش ، لكن هذه التوسلات ما زادت الامبراطور الا شكوكا وايمانا بأنهما ضالعين فيما يجرى خارج القصر ، ومن ثم أصر على موقفه ، فامتثل الرجلان لأوامر الامبراطور(٥٦) •

بهذه الخطوة ألقى الامبراطور جوستنيان فى أيدى أعدائه ، بورقة رابحة ، كان من الممكن أن تحقق لهم كسبا عظيما ، لو سارت الأمور كما خططوا لها ، فقد حدث ما تنبأ به الأميران • أما ما كان من أمر جوستنيان ، فقد ظهر فى الهبدروم مع مطلع صبيحة يوم الأحد الثامن عشر من يناير ، ليقدم للثائرين آخر محاولة فى جعبته لاسترضائهم ، فأعلن مسئوليته الكاملة عن كل ماحدث ، وأن عليه وحده تقع هــذه الفوضى التى حلت بالعاصمة ، نتيجة لعدم استجابته فى البداية بالعفو عن الرجلين اللذين نجيا من المشنقة ، ثم أذاع فى الحضور أنه قد قرر عفوا عاما يشــمل جميع من شاركوا فى هذه الاضطرابات(٥٧) •

ويبدو أن جوستنيان كان يضع نصب عينيه ، ما حدث قبــل ذلك فى نفس المكان ، بسنوات قليلة ، بين الامبراطور أنسطاسيوس وشعبه ، عندما وقف هذا الأخير فى المقصورة ، وخلع عباءته الأرجوانية ، بعد أن ثار الناس ضد سياسته الاقتصادية ، وأعلن فى حركة مسرحية أنه على استعداد للتنحى عن العرش اذا ما طلب اليه الجموع ذلك ، فما كان من هؤلاء الجموع الا أن هتفوا بحياة أنسطاسيوس(٥٨) غير أن ما حدث فى عام ٥١١ ضد أنسطاسيوس ، كان يختلف جذريا — كما سنرى — عما يجرى سنة ٥٣٢ زمن جوستنيان • ومن ثم لم يهتف الناس فى الهبدروم بحياة جوستنيان كما فعلوا مع سلفه الأسبق ، بل راحوا يقذفونه بالحجارة ويسبونه بأقذع الألفاظ « كذاب •• خائن •• حمار »!! فلم يجد أمامه الا أن ينسحب عائدا الى قصره !(٥٩) •

---

(56) Ibid. 20-21.
(57) CHRON. PASCH. an. 532.
(58) MALALAS, Chron. p. 408.
(59) CHRON. PASCH. au. 532.

وفى الوقت نفسه ، تناقل الثائرون خبر طرد هيباتيوس وبومبى من القصر الامبراطورى ، وعقد زعماء الثائرين من السناتو اجتماعا قرروا فيه مهاجمة الامبراطور فى قصره ، ولم يقيموا وزنا لنصائح أحد أقطابهم، أوريجن Origenes الذى دعاهم الى التريث فى الأمر ، وأن المسألة تحتاج الى شىء من التعقل والحكمة،وفى الوقت نفسه الصبر،حتى يسقط القصر الامبراطورى ى أيديهم طواعية ودون عناء ، لأنه « اذا ما واجهنا العدو بصورة سارة ، أصبحت قضيتنا مغلقة ، متأرجحة ، وسوف نكون بذلك قد أقدمنا على مخاطرة غير محسوبة ، سوف يتقرر بمقتضاها كل شىء فى وقت قصــير ، وعلينا عندئذ أن نخر راكعين أمام آلهة الحظ ، أو أن نلقى عليها اللوم ،فالأمور التى يصدر بشأنها قرارات سريعة غير مدروسة ، يكون مالها ــ كما هى القاعدة ــ الخضوع لضربات الحظ !»[٦٠] لكن أحدا من أعضاء السناتو المتحمسين للحصول على نتيجة سريعة لعملهم طوال هذه الأيام الماضية ، لم يضع لمشورة أوريجن • ويبدو أن أعضاء السناتو الذين أخرجوا من القصر الامبراطورى فى الليلة السابقة ، قد نقلوا الى زملائهم الحالة المتردية التى وصلت اليها الأمور داخل جدران القصر ، وحالة الهلع التى انتابت الجميع وعلى رأســهم الامبراطور ، خاصة بعد فشــل بليزاريوس فى اخماد الثــورة ، ورفض الحــرس الامبراطورى المشاركة فى هذا الأمر •

وعلى الفور اتجه الزحوف وزعماؤهم الى دار هيباتيوس ، واقتادوه الى ساحة قسطنطين ، ومنها الى الهبدروم ، حيث نادوا به امبراطورا ، وأجلسوه فى المقصورة • وعبرت زوجه عن هذه اللحظة برؤية قانطــة عبوس ، ترجمتها فى كلمات نافذة قائلة : « انهم يسوقونه الى الموت لا الى العرش !! » وذهبت صرخاتها بالابقاء عليه فى داره بعيدا عن هــــذه الأحداث •• عبثا[٦١] •

---

(٦٠) راجع نص خطاب أوريجن فى
PROCOP. bel. Pers. I, XXIV, 26-30.
وايضــا : Ibid. 22-24
(61) ZONAR. epit. XIV, 6

لم يكن هيباتيوس من ذلك النوع من الرجال ، الذى يمكن أن يغدو بطلا ، أو أن يركب هذه الموجة العالية • ومهما يكن شـــعور من بداخل القصر ، فان هيباتيوس كان يسيطر عليه دائما شعور الاخفاق واليأس • لقد كان من أولئك النوع من الرجال الذين يعتقدون أن فرصتهم الوحيدة فى النجاح ،تتلخص فى عدم الافصاح عن موقفه ، حتى ولو كان النصر فى جانبه(٦٢) • لقد عاش منذ وفاة عمه أنسطاسوس ، فى كنف جوستين وجوستنيان ، راضيا قانعا بما قسمت له به عجلة المسرح السياسى فى العاصمة ، وظل حتى اللحظة الأخيرة محتميا بالامبراطور داخل قصره ولم يخرج منه الا مطرودا عندما توجس جوستنيان فى نفسه منه خيفة • ولذا كان أول ما أقدم عليه هيباتيوس وهو يحتل المقصورة الامبراطورية، أن كتب رسالة الى جوستنيان ، يوضح له فيها موقفه ، وطلب اليه سرعة مهاجمة الهبدروم ، ليأخذ الثائرين على غرة ، وهم فى نشوة النصـــر بتتويج الامبراطور الجديد(٦٣) •

غير أن هذه الرسالة لم يقدر لها أن تصل الى جوستنيان أبدا ، ذلك أن افرايم Ephraim أحد المقربين الى هيباتيوس ، والذى حمل الرسالة ليسلمها الى جوستنيان ، التقى فى طريقه عبر الدهليز الذى يصل بين القصر الامبراطورى والمقصورة ، بتوماس Thomas الطبيب الخاص بجوستنيان ، فأخبره هذا أن الامبراطور وحاشيته قد أطلقوا سيقانهم للريح مولين الأدبار(٦٤) ، فعاد افرايم مسرعا الى سيده يحمل اليه هذه الأنباء ، التى لابد سوف تثلج صدره وتعطيه الآمان ، باعتباره قد غدا امبراطورا حقا • ولم يكلف افرايم نفسه عناء التيقن من صحة هــذا الخبـــر •

ويبدو أن توماس ، قد حضر الجانب الأول من الاجتمـــاع الذى دعا اليه جوستنيان لبحث الأمر ، بعد الاهانة التى لحقت به فى الهبدروم

---

(62) Baker, Justinian, p. 24.
(63) CHRON. PASCH. an. 532.

صبيحة هذا اليوم ، وبعد ما صك مسامعه من تتويج هيباتيوس امبراطورا ، وقد أيد الحاضرون جميعا وفى مقدمتهم يوحنا الكبادوكى ، فكرة الهروب الى الشاطىء الاسيوى للبسفور ، ليكونوا فى مأمن من الهجوم المتوقع على القصر ، ولم يبد العسكريون وعلى رأسهم بليزاريوس اعتراضا على هذا الرأى ، بعد أن ثبت فشل المواجهة العسكرية ، ولأن المشكلة الرئيسية كانت تتلخص فى عدم وجود قوات كافية للتصدى للثوار ، حيث أن الجيش كان يرابط على الجبهة الفارسية • ولا شك أن توماس قد انسحب من الاجتماع عند هذا الحد ، ونقل الى افرايم هذه الصورة ، قبل أن تخف ثيودورا الى مكان المجلس ، لتدلى برأيها ، ولتقلب هذه الفكرة رأسا على عقب •

تفرست ثيودورا وجوه الحاضرين ، وقد تلبدت سماء الأمل بغيوم القنوط ، وراحت بكل الحزم تقول : « فى مثل هذه الأزمة والتى نواجهها •• ليس لدينا الوقت لمناقشة ما اذا كان مكان المرأة الالتزام بالقاعدة القديمة التى تقضى بالصمت اذا ما تحدث الرجال •• أم لا •• وهل من الواجب أن تظل مطاطئة الرأس ، خانعة خجول فى حضور السادة •• أم لا ؟! علينا اذن أن نعمل بسرعة • وانى لأرى أن هذا الوقت بالذات ليس مناسبا للفرار ، حتى لو كان فى ذلك الأمان كه •• فليس هناك شىء مضمون • وكلنا يعلم أن كل مولود ، لابد له من يوم يودع فيه دنياه ، لكن ليس من اللائق على من غدا امبراطورا ، أن يمسى هاربا • اننى لن أتخلى أبدا عن هذه العباءه الأرجوانية ، ولن أعيش ذلك اليوم الذى يخاطبنى فيه من يلقنى بغير لقب الامبراطورة •• والآن •• أى مليكى •• اذا شئت أن تنجو بنفسك ، فليس ذلك صعبا ، ولا شىء يمنعك • فالمال وفير ، والبحر طيع وسيع ، والسفين على الشطآن كثير • أما أنا •• فانى أوثر أن أستمسك بالقول القديم : الأرجوان خير الأكفان »[٦٥] •

(64) Id.

(65) POOCOP. bel. Pers., I, XXIV, 32-37.

كان لهذه الكلمات فعل السحر فى نفوس الحاضرين جميعا وفى مقدمتهم جوستنيان ، الذى كان قد أسند ظهره بعد تجربة الصباح فى الهبدروم الى جدار اليأس ، واستدعى اليه بمشورة زوجه ، الخصى نارسس Narses ودفع اليه مبلغا من المال ، وأسر اليه آمرا أن يقصد زعماء الزرق، مذكرا اياهم بما كان من موقف جوستنيان معهم منذ بداية عهده ، وأن يقدم اليهم هذه الأموال « رشوة » دليلاً على حسن نيات الامبراطور تجاههم ، لقاء التخلى عن مناصرة الخضر ، وفض هذا التحالف • ولقيت هذه المناورة استجابة من الزرق ، الذين انسحبوا من الهبدروم تاركين الخضر يواجهون المصير المحتوم وحدهم[٦٦] •

وصدرت الأوامر الى كل من بليزاريوس وموندوس ، بمهاجمة الثائرين فى الهبدروم ، وسط نشوتهم بفرحة الانتصار ، باعلان هيباتيوس امبراطورا ، وقد حاول بليزاريوس الوصول مباشرة الى المقصورة الامبراطورية للقبض على هيباتيس ، فيوقع الذعر فى نفوس الثائرين ، غير أن محاولته باءت بالفشل ، ازاء موقف الحرس الامبراطورى المكلف بحراسة بوابات الدهليز الموصل بين القصل والمقصورة ، الذى رفض أن يسمح لبليزاريوس بالمرور[٦٧] • ومن ثم اضطر القائد أن يخرج من القصر بقواته لمهاجمة الهبدروم من الخارج • وقد نجحت قوات بليزاريوس وموندوس من القوط والهيروليين فى اقتحام الهبدروم ، بحيث أحيط بالثائرين فى داخله ، وجرت مذبحة مروعة ، أفاض المعاصرون فى وصف أحداثها ، وذهب ضحيتها على أقل التقديرات ، ثلاثون ألف رجل[٦٨] • وتم

---

(66) MALALAS. Chron. p. 476.

(67) PROCOP. bel. Pers. I, XXIV, 44-45.

(٦٨) PROCOP. bel. Pers. I, XXIV, 54 وقد اختلفت تقديرات المؤرخين حول اعداد القتلى الذين راحوا ضحية هذه المذبحة ، فيقدرهم زكريا المتلينى بثمانين الف رجل ، وهو عدد مبالغ فيه جدا ، بينما زوناراس يراهم فيتحفظ فى القول عندما يذكر انهم « تقريبا » خمسة وثلاثين الفا • ومن ثم اعتمدنا على رأى بروكوبيوس ، أقربهم جميعا للاحداث ، وسكرتير بليزاريوس القائد الذى نجح فى سحق الثورة • راجع KACH. Chron. IX, 14 وأيضا : ZONAR. epit. XIV, 6; MALALAS, Chron. p. 477; IOAN. LYD. de magist. III 26.

القاء القبض على كل من هيباتيوس وبومبى ، حيث سيقا الى الامبراطور فى اليوم التالى لهذا اليوم الحزين • ويبدو أن الامبراطور ، كما يظهر من حديث زكريا المتلينى ، كان يميل الى العفو عن الأخوين ، بعد أن تفهم حقيقة موقفهما[٦٩] ، خاصة وأن بومبى لم يشارك فى هذه الأحـداث على الاطلاق ، ولم يكن له أى دور فيها ، بينما راح هيباتيوس يوضـح لجوستنيان أن ارادته قد سلبت تماما ، أمام هياج الجموع الصـاخبة التى رفعته الى العرش دون رغبـة منه ، وأنه جىء به الى الهبدروم قسرا ، ودلل على ذلك بأمر الرسالة التى بعث بها اليه وهو فى المقصورة الامبراطورية[٧٠] ، وهى التى لم تصل الامبراطور كما علمنا • غير أن ثيودورا التى احتلت الآن مكانة مرموقة بعد وقفتها الشـهيرة وكلماتها النافذة ، وبعد أن اتضح للجميع قوة عزيمتها وسداد الرأى لديها ، أقنعت زوجها بأن من الحكمة الخلاص من الرجلين ، حتى لا يكونا دافعا لفتنة جديدة قد تظل برأسها • ومن ثم اقتيد الرجلان الى شاطىء البسفور حيث احتزت رأساهما وألقى بجثتيهما فى البحر[٧١] •

أما ما كان من أمر أعضاء مجلس السناتو الذين شاركوا فى هـذه الثورة ، فقد ألقى القبـض على ثمانية عشر عضوا منهم ، وصـودرت ممتلكاتهم ، وان كانت هذه المصادرة لم تستمر طويلا ، بل تم اعلان العفو عنهم فيما بعد ، وأعيدت اليهم الممتلكات التى تمت مصادرتها[٧٢] بعد أن قلمت أظافرهم ولم يعد يخشى بأسهم •

هكذا قضى على أخطر ثورة شهدتها القسطنطينية طوال تاريخها ، بجرأة ثيودورا ، على حد تعبير بيورى[٧٣] Bury وولاء بليزاريوس

(69) KACH. Chron. IX, 14.
(70) PROCOP. bel. Pres. XXIV, 55-56.
(71) PROCOP. bel. Pres. XXIV, 57 ZACH, Chron. IX, 14.
(72) CHRON. PASCH. an. 532.
وايضـا : POOCOP. bel. Pers. I, XXIV, 27.
(73) Bury, Later Roman Empire, II, p. 48.

وشجاعته ، ومكن جوستنيان لنفسه فى الأرض ، ليحكم بعد ذلك حكما مطلقا طيلة ثلاثة وثلاثين عاما آتية ، أقدم فيها على تنفيذ مشروعاته وآماله العريضة ، دون أن يلقى من بعد معارضة • على أن هذه الثورة تمثل نقطة تحول بارزة فى مختلف نواحى الحياة فى الامبراطورية البيزنطيـــة • ولنحاول الآن بهدوء ، بعد أن عايشنا حوادث العنف وتطوراتها ، أن نحلل وقائعها ، لندلل على صدق ما تذهب اليه ، من اعتبارها حجر الزاوية فى تثبيت دعائم نظام سياسى بعينه فى الامبراطورية ، وما ترتب على ذلك من تغيرات واسعة شملت جوانب الحياة العامة •

فعندما وضع بروكوبيوس كتابه الأول « عن الحرب الفارســية » De Bello Persico وصف هذه الثورة بأنها « عصيان مسلح وغير متوقع بين العامة فى القسطنطينية ، وان كانت قد أثبتت أنها فى غاية الخطورة ، كما أنها انتهت بأضرار بالغة للعامة والسناتو »[٧٤] ، وان كان يعزوا بداياتها الأولى التى وقعت فى الهبدروم ، الى « الروح المريضة » لدى أنصار فريقى الزرق والخضر[٧٥] • فلما دون بعد ذلك « مذكرات لم تنشر » أو ما اصــطلح على تســـميته بـــ (بالتـــاريخ السرى) Historia Arcana ألقى بتبعة الأحداث كلها فوق رأس الامبراطور جوستنيان ، فكتب يقول : « عندما يكون الناس على ثقة بالمستقبل ، فانهم يصبحون على استعداد لتحمل آلام الحاضر ، أما اذا ما وقعوا تحت طائلة العسف والجور على يد رجال الحــكومة ، فانهم يصبحون أكثــر احساسا بالكرب والضيق مما يعانون ، ويسقطون فريسة اليأس القاتل الذى ينبىء أنه لا أمل مطلقا فى العدالة • ولقد خدع جوستنيان رعاياه وضللهم ، ليس فقط برفضه الدائم مساعدة ضحايا هذه الأخطاء ، بل لأنه كان على استعداد تام كى يضع نفسه حاميا لهذا الفريق أو ذاك من أنصاره ، ولأنه أنفق أموالا طائلة على هؤلاء المتهورين الطائشـــين

---

(74) PROCOP. bel. Pers. I, XXIV, 1.

(75) Ibid., 6.

واحتفظ بعدد من هؤلاء بطانة له وحاشية ، ورفع بعضهم الى أعلى المناصب »[٧٦] .

وبروكوبيوس يشير من طرف خفى ، الى ما أفصح عنه صراحة فى نفس الموضع من كتابه الأخير ، من تأييد جوستنيان لحزب الزرق ، و« عربدة » هؤلاء فى القسطنطينية والأقاليم الشرقية من الامبراطورية ، استنادا الى تأييد الامبراطور لهم ، حتى « خرت الدولة على ركبتيها جاثية » بسوء فعالهم . ومع صدق ما يذهب اليه بروكوبيوس الى حد كبير، فلا ننسى أن الرجل كان قيساريا ، وأن هواه لابد أن يكون مع الاقاليم الشرقية ، التى أمست تحت سيادة جوستنيان ، تأتى فى المرتبة الثانية بعد ولايات الغرب الرومانى ، التى جعل الامبراطور من استردادها مبلغ همه ، على عكس ما كان قد غدا عليه النصف الشرقى للأمبراطورية منذ عهد دقلديانوس فى أخريات القرن الثالث الميلادى وأوائل الرابع[٧٧] .

ويشير بروكوبيوس أيضا ، وان كان بوضوح كامل الى من رفعهم جوستنيان الى « أعلى المناصب » ، قاصدا بذلك يوحنا الكبادوكى ، النائب الامبراطورى والمستشار المالى لجوستنيان ، اذ يعتبره بروكوبيوس

---

(76) PROCOP. hist. arc. VII.

(٧٧) كانت هذه الصورة واضحة جدا فى أذهان كتاب القرن الرابع ، أعنى احتلال النصف الشرقى المرتبة الأولى ، فعندما وضع دقلديانوس نظام الحكومة الرباعية Tetrachia ليكون بديلا عن الفوضى السياسية والعسكرية التى أهلكت الامبراطورية ، فيما عرف بأزمة القرن الثالث ، احتفظ لنفسه بالمكانة الأولى باعتباره أوغسطس الشرق والامبراطور الأول ، ويأتى فى المرتبة الثانية أوغسطس الغرب ، ويحتل المرتبة الثالثة قيصر الشرق ، بينما المرتبة الرابعة من نصيب قيصر الغرب ، ولعل أروع وأصدق تعبير عن فهم المعاصرين وادراكهم لهذه الحال ، ما كتبه البلاغى الافريقى الشهير لاكتانتيوس ، يصف به الأوضاع ، عندما قبل قسطنطين التخلى عن منصب أوغسطس الغرب الذى رفعه الجنود اليه بعد موت أبيه ، قبل منصب قيصر الغرب ، بناء على أوامر جالبريوس أوغسطس الشرق ، قال لاكتانتيوس : « لقد هبط قسطنطين بذلك من الدرجة الثانية الى الدرجة الرابعة » . انظر : LACT. mort. pers. 25 وللوقوف على تفاصيل هذه الأحداث ، راجع للباحث ، الدولة والكنيسة ، الجزء الثانى ، الفصل الثانى .

آفة زمانه وكارثة عصره ، « بعيدا كل البعد عن الثقافة ، لم يفقه شيئا مطلقا مما تعلمه فى مراحل تعليمه الأولى ، لكنه على الرغم من ذلك أصبح الرجل الذى نعرفه . لقد كان عظيم الاقتدار فى أن يقــرر ما يريد وأن يجد المخرج والحل لكل صعب . اســتخدم مهاراته لتحقيــق كل أغراضه .. لم يكن يقيم اعتبارا لله ، ولا لأى انسان مهما كانت منزلته ، بل كثيرا ما كان على استعداد أن يحطم العديد من الرجال من أجل كسب يحققه ، ومن ثم فانه خلال فترة وجيزة جدا ، تمكن من أن يجمع حصيلة ضخمة من الأموال . لقد كان خراب كل المدن محور اهتمامه »(٧٨) .

ويتفق المؤرخون جميعا فى خلع مثل هــذه الصفات على يوحنــا الكبادوكى ، فهذا يوحنا الليدى Ioannes Lydus يذكر أنه استطاع أن يكسب جانب الامبراطور عندما وضع أمامه عددا من المشروعات ، تهدف كلها الى زيادة حصيلة الضرائب ، بحيث تتناسب مع الانفــاق الضخم(٧٩) . أما زكريا المتلينى فيصفه فى عبارات تكاد تتفق تمــاما مع ما يورده بروكوبيوس ويوحنا الليدى ، ويقول : « انه درج على تلفيق الاتهامات الى الناس باستخدام أساليب الخداع والمكر والدهاء ، فى القسطنطينية وغيرها من المدن ، وجمع أموالا ضخمة للخزانة الامبراطورية من كل الطبقات دون تمييز ، علية القوم والحرفيين على الســـــواء . لقد كان مسموع الكلمة فى القصر ، مخيفا لأى انسان ، ولم لا وقد كان من أشــد المقربين والثقاة الى الامبراطور »(٨٠) . ويعبر أحــد المؤرخين

---

(٧٨) PROCOP. bel. Pers. I, XXIV, 12-13 ويضيف : « لقد اندفع بكل قوة فى حياة دنسة دنيئة لوغد مخمور ، فعلى امتداد كل يوم حتى موعد الغذاء ، تصبح مهمته سلب أموال وثروات الرعية ، بينما يشغل بقية يومه فى الشراب والدعارة . ولم يكن قادرا بالمرة على كبح جماح نفسه ، فهو يأكل حتى يتقيأ ، وهو على استعداد دائما لسلب الأموال ، وأكثر استعدادا للحصول عليها وانفاقها » !

Ibid. 14-15.

(79) IOAN. LYD. de magist. III 27-58.

(80) ZACH. Chron. Ix, 14.

الحديثين[٨١] عن شخصية يوحنا الكبادوكى ، بعبارة بليغة يوجز فيها كل ما قاله السابقون ، بقوله : « لقد كان همه أن يملأ بالأموال حفرة لا قاع لها !! » .

ومما لا ريب فيه أن هذه الاتهامات الموجهة الى النائب الامبراطورى ، وباعتباره « أشد المقربين والثقاة الى الامبراطور » ، تنسحب تلقائيا على شخص جوستنيان هو الآخر ، الذى كان حسب تعبير بروكوبيوس « ينتهز أية فرصة ليغتصب ما بيد رعاياه من الأموال ، بل كان على استعداد لأن يبيع القانون لقاء مبلغ من الذهب ! »[٨٢] . على حين يصفه افاجريوس Evagrius بأنه كان فى حبه للمال نهما لا يشبع ، يشتهى كل ما تملكه رعيته الى الحد الذى باعهم فيه جملة واحدة لموظفيه وجباة الضرائب فى دولته[٨٣] .

والحقيقة أن جوستنيان وجد فى يوحنا الكبادوكى ضالته التى ينشدها ، فالامبراطور يضع نصب عينيه تحقيق عدد من المشروعات الضخمة ، أتى فى مقدمتها استرداد ولايات الغرب الامبراطورى التى ضاعت من جراء الغزو الجرمانى ، وأمست ممالك جرمانية . وكان جوستنيان امبراطورا رومانى القلب والقالب ، يؤمن ايمانا كاملا بالامبراطورية الرومانية الواحدة ، العالمية ، ويوقن تماما أن روما البسفور لا تغنى مطلقا عن روما التيبر ، وأفصح عن ذلك فى تشريعاته عندما راح يبدى حسرته الشديدة على تقلص مساحة الامبراطورية ، نتيجة السياسة الضعيفة التى انتهجها الأباطرة الأسلاف[٨٤] . وأعلن صراحة عن عزمه على استعادة ولايات الغرب الرومانى الضائعة ، بقوله : « لدينا

---

(81) Baker, Justinian, p. 79.

(82) PROCOP. hist. arc. XIV.

(83) EVAG. hist. eccl. IV, 30.

(84) IUS. Nov. XXV, 2; Nov. XXX, 71.

كبير أمل فى الله بأن يأذن لنا فى استرداد الأراضى الامبراطورية الرومانية القديمة ، التى من جراء التراخى ضاعت »[85] •

بناء على هذا الفكر لدى جوستنيان ، عرض على مستشاريه الماليين والعسكريين ، فى أخريات عام ٥٣١ مشروع القيام بحملة عسكرية الى ولاية أفريقيا التى يحتلها الوندال • ورغم أن هذه الفكرة لقيت المعارضة الكاملة من جانب هؤلاء المستشارين ، تأسيسا على الفشل الذى أصاب الحملة التى قادها باسيليسكوس Basiliscus على عهد الامبراطور ليو الأول ضد الوندال عام ٤٦٨ • الا أن جوستنيان أعرض عن آراء من جمعهم ليشاورهم فى الأمر ، وصمم على انقاذ هذه الحملة ، خاصة وأنه كان قد ضمن اقرار السلام ولو بهدنة مؤقتة عقدها مع الفرس ، قبل بمقتضاها أن يدفع مبلغا ضخما من الذهب ، لشراء سكوت فارس[86] • وازاء هذه الجزية التى تقررت لفارس ، والأموال المطلوب توفيرها للاعداد للحملة الافريقية ، كان على يوحنا الكبادوكى أن يوفر للامبراطور كل ما يطلبه ، ولم يدخر الرجل فى ذلك وسعا ، ولم يستثن من ذلك — كما يقول زكريا المتلينى — كبار الملاك أو صغار الحرفيين •

وليس أصدق فى التعبير عن شدة حاجة الامبراطور الى الأموال بصورة عامة ، من التشريعات التى أصدرها جوستنيان نفسه ، متعلقة بالضرائب • فها هو يوجه تعليماته الى حكام الولايات : « فلتكن جباية الضرائب هى شغلكم الشاغل قبل أى عمل آخر » ، ثم يتوجه بحديثه الى رعيته : « ألا فلتعلموا أن مشروعاتنا الضخمة وآمالنا العراض ، لن يتم انجازها دون الأموال ، ألا فلتدفعوا الضرائب اذن دون ابطاء »[87] • وتضمن القسم الذى كان يؤديه حاكم الاقليم النص على بذل كل الجهد لجباية الضرائب : « ••• وأقسم أن أبذل قصارى جهدى فى متابعة تحصيل الضرائب ، وأن أطالب المتراخين فى السداد بكل شدة ، وأن أكون

---

(85) IUS. Nov. XXX, 11.
(86) PROCOP. bel. Pers. I, XXII.
(87) IUS. Nov. VII, 8, 10; Nov. XVIII, 1; Nov. XXX,2.

معهم ضارما ، وأن لا أتردد فى استخدام القسوة اذا ما تطلب الأمر »(٨٨) بل ان جوستنيان ذهب أبعد من ذلك عندما حذر المولين من تقـــديم شكاياتهم ضد حكام الولايات ، اذا ما اتبع هؤلاء معهم وسائل العنف عند تحصيل الضرائب(٨٩) وهددهم بأشد أنواع العقاب ، اذا ما انتهزوا المهلة المحددة له لرحيله عن الاقليم لايقا ع الأذى به(٩٠) • وراح يلقى باللائمة على الأباطرة الأسلاف الذين تهاونوا فى حقوق الخزانة الامبراطورية ، حتى انخفض دخل الدولة من الضرائب حسب تقديره الى الثلث وربما الربع(٩١) •

وكان طبيعيا أن يقدم جوستنيان فى سبيل زيادة دخل الخزانة ، على فرض ضرائب جديدة ، منها على سبيل المثال تلك التى فرضت على أصحاب الحوانيت فى القسطنطينية ، والتى قدرت بحوالى خمسين فى المائة من صافى الأرباح السنوية لهذه الحوانيت ، وذلك فى مقابل اطلاق يد التجار فى عدم الالتزام بالتسعيرة الجبرية ، مما أدى الى ارتفـــاع الأسعار الى ثلاثة أمثال السعر العادى • وأوقع الأضرار بالكثيرين ، وأطلق يد موظفى الحكومة للعبث كيف شاءوا بهذه الحـــوانيت لتقدير قيمـــة « النصف » كيف شاءوا(٩٢) • كما ابتدعت الادارة المالية تحت رشد يوحنا الكبادوكى ، ضريبة جديدة لم تكن موجودة من قبل ، حملت تسمية غريبة ، اذ عرفت بضريبة « الهواء » أو « السماء » Aerikon من المحتمل أنها فرضت على الأبنية المرتفعة فى المدن الكبرى • وقد حققت هـــذه الضريبة المبتدعة ، دخلا كبيرا للخزانة بلغ ثلاثة آلاف رطل من الذهب

---

(88) IUS. Nov. VIII, 3.

(89) IUS. Nov. VII, 10, Nov. XXVIII, 5.

(90) IUS. Nov. VIII, 10.

(91) IUS. Nov. VII praef.

(92) POOCOP. hist. arc. XX.

سنويا[٩٣] • ولم ينج أصحاب السفن التجارية أيضا من مثل هذه الأمور التى تدخل ضمن دائرة الابتزاز ، اذ كان عليهم دفع رسوم مالية كبيرة عند ارتحال سفنهم عن ميناء العاصـــمة ، أكرههم عليها موظفـــو الادارة المالية ابتغاء وجه الأمبراطور[٩٤] ، بحيث أصبح شعار العاملين فى الادارة الحكومية ، أو بتعبير بروكوبيوس نفسه ، أصبح طموحهم الوحيد ، أن يقنعوا الامبراطور بجـــدية ولائهم له ، عن طريق المزيد من الأمـــوال والمزيد »[٩٥] •

وفى مقابل الجدية التى بلغت حد التعسف فى تقـــدير الضرائب وطرق جبايتها ، لم يتردد جوستنيان فى اتباع سياسة تقشفية ، لتوفير بعض الأموال التى تنفق فى وجوه عدها الامبراطور اسرافا واهـــدارا للاموال العامة • من ذلك اقدامه على الغاء المنحة التى كانت تعطى الجنود مرة كل خمس سنوات ، على عهود من سبقه من الأباطرة ، ومقـــدارها خمسة صوليدى لكل جندى[٩٦] ، كما أنه أبطل المكافأة التى كانت تصرف للعـــاملين فى الدولة عند نهاية الخـــدمة[٩٧] • وأوقف صرف الاعانات والمعاشات التى كانت تعطى فيما سبق لاطباء ومعلمى أبناء النبلاء[٩٨] ،

---

(٩٣) Ibid. XXI ويبدو أن هذه الضريبة قد ظهرت بعد ذلك فى عهود تالية متأخرة ، زمن ليو السادس الحكيم (٨٨٦—٩١٢) والكسيوس كومننوس (١٠٨١—١١١٨) • وقد دارت حولها مناقشات عديدة • راجع :

Bury, Later Roman Empire, II p. 350, N. 4

(94) PROCOP. hist. arc. XXIV, XXV.

(95) Ibid. XXV.

(٩٦) Ibid. XXIV ويتشكك جونز فى أقوال بروكوبيوس فى هذا الصدد ، ويذكر أنه لم يكن من السهل أن يمر هذا الاجراء دون معارضة شديدة من جانب الجنود • انظر :

Jones, Later Roman Empire, I, pp. 284-285.

(97) PROCOP. hist. arc. XXIV.

(98) Ibid. XXVI.

وحول جـزءا مما كان يحصـل عليه المحـامون ليصـب فى الخزانة الامبراطورية ، وذلك بالسماح للمتقاضين برفع دعاواهم أمام المحـاكم مباشرة دون اللجوء الى المحامين[99] • ومع التحفظ والحذر الشديدين ، اللذين لابد أن يضعهما الباحث فى اعتباره عند قراءة « التاريخ السرى » لبروكوبيوس[100] ، الا أنه بالمقارنة مع تشريعات جوستنيان نفسـه ، وما يذكره المؤرخون الآخرون أمثال يوحنا الليدى وافاجريوس وزكريا المتلينى ويوشع العمودى ، وفى ضوء المشرعات العمرانية والتشريعية والحربية ، التى نفذها جوستنيان على امتداد عهده الطويل البالغ ثمانية وثلاثين عاما ، لا نملك الا القول ان الامبراطور ووزيره الأثير يوحنـا الكبادوكى ، قد سخرا كل طاقات الادارة المالية وجهدها ، كى تمتـلىء الخزانة بالأموال بأى وجه من الوجوه ، وكيفما كان الأسلوب •

ولعل هذا هو الذى يفسر نزوح أعداد هائلة من أهـالى الأقاليم الشرقية الى العاصمة ، بحثا عن المؤن ، حيث كانت حصة القمح المجانية لا تزال توزع فى القسطنطينية ، وحيث حياة الترف والبهجة والهبدروم ، والبحث عن عمل ومصدر رزق أوسع أو حظ أوفر • وهكذا وفد عـلى المدينة فلاحون وزوجاتهم ، وقساوسة ورهبان وراهبات ، وتجـار ومحامون بلا عمل ، ومعظمهم متظلمون جاءوا يضعن شكاياتهم عند أقدام العرش[101] ، خاصة بعد أن أصبحت هـذه الأقاليم تئن تحت وطـأة الضرائب الباهظة ، وضغط الحرب الفارسية التى كانت قائمة على قدم وساق طوال سبع سنوات (٥٢٤ ــ ٥٣١) ، أى قبل أن يعتلى جوستنيان

---

(99) Ibid. XXV.

(١٠٠) يستخدم بروكوبيوس تعبيرا واحدا هو « ابتزاز الرعية » على امتداد صفحات كتاب « التاريخ السرى » ، يصف به جهد جوستنيان ويوحنا الكبادوكى للحصول على الأموال ، للانفاق على هذه المشروعات الكثيرة التى كان يطمح الى تحقيقها جوستنيان • ويعطينا يوحنا الليـدى تفصيلا دقيـقا للضرائب الباهظة التى فرضت على الأهالى دون تمييز ، والتى بلغت فى جملتها قرابة العشرين ضريبة • راجع :

IOAN. LYD. de magist. III 69-70.

(101) Ibid. 66.

العرش[١٠٢] ، وان كانت الهدنة قد حلت مؤخرا ، وقد أصبح نزوح هـــذه الجموع الى العاصمة يشكل خطرا بالغا على احتياطات الأمن والتموين فى القسطنطينية ، ولم تخفف تشريعات جوستنيان هذه الحقيقة ، عندما راح الامبراطور يشكو فى أحداها — كما أسلفنا — من خلو الولايات من ساكنيها ، « بينما امتلأت مدينتنا بأضداد الخلائق »[١٠٣] .

ولا شك أن الناس راحوا يتحسرون على الأيام الخـــوالى ، ألتى عاشوها زمن الامبراطور الأسبق أنسطاسيوس ، حيث ألغى عددا من الضرائب كان الهدف منها تخفيف الأعباء الاقتصادية الثقيلة على الأهالى، وعوض النقص الذى أصاب الخزانة من جراء ذلك ، بدخل الضـــياع الامبراطورية التى يبدو أنها زادت آنذاك الى حد كبير ، بالاضافة الى مصادرة ممتلكات الامبراطور السابق زينون وجماعته من الأيزوريين ، والغاء الاعانة التى كانت مخصصة لهؤلاء الأخيرين[١٠٤] . يضاف الى ذلك اشرافه الكامل على اخضاع المواد الغذائية للتسعيرة الجبرية المخفضة التى تحددها الدولة ، حتى يحول دون جشع كبار التجار[١٠٥] .

وقد تمكن أنسطاسيوس ، بما عرف عنه من حرص شديد بلغ حد التقتير ، من معالجة الأزمة الاقتصادية التى نتجت عن التكاليف الباهظة التى تطلبتها الحملة الفاشلة على أفريقيا عام ٤٦٨ بقيادة باسيليسكوس ، وما تبع ذلك من فوضى داخلية بسبب الصراع عى العرش ، وما أحدثه الأيزوريون من اضطرابات فى العاصمة وخارجها ، وقد ترك أنسطاسيوس

---

(102) IUS. Nov. XVII, 2, 3; XXIV, 1, 3, 13, 15; XXX, 5; XXVII, XXXIII; XXXIV.

(103) IUS. Nov. XXV, 3; XXX, 9; LXXX.

وراجع ايضا : KACH. Chron. IX, 14.

(104) MALALAS, Chron. p. 398.

وأيضا : EVAG. hist. eccl. III, 42.

وراجع كذلك : Bury, Later Roman Empire, I, p. 442.

(105) Stein, Bas-Empire, II pp. 200-201.

خزانة عامرة بالأموال[١٠٦] • ورغم الأموال الطائلة التى جمعها جوستنيان خلال فترة حكم خاله جوستين عبر تسع سنوات ، والتى فاقت حسب رواية بروكوبيوس ما ادخره أنسطاسيوس على عهده البالغ سبعة وعشرين عاما ، الا أنه يبدو أن الحرب الفارسية والجزية المالية الضخمة التى قبل جوستنيان أن يدفعها للفرس ، وما أنفق على المشروعات المعمارية ، واللجان الفقهية التى وكل اليها اعداد مجموعة قوانين جوستنيان الشهيرة ، كل هذا قد استنفذ هذه الأموال الطائلة[١٠٧] •

من هنا كان السخط عاما على جميع الطبقات بلا استثناء ، عندما اندلعت الثورة فى القسطنطينية ، بسبب هذه السياسة المالية التى اتبعها النائب الامبراطور والمستشار المالى وباركها جوستنيان • ومن هنا نستطيع أيضا أن نتفهم حقيقة الدوافع التى حدت بالثائرين الى المطالبة بعزل يوحنا الكبادوكى من منصبه ، ليس فقط من جانب الفقراء الذين اعتصرتهم اجراءات يوحنا ، بل أيضا كبار الملاك الذين كانوا قد كونوا لأنفسهم قوات خاصة يقفون بها فى وجه السلطة الحكومية[١٠٨] •

ولم يكن هذا السخط ناجما فقط عن السياسة الضرائبية التى فرضها جوستنيان على شعبه ، من أجل تحقيق آماله ، بل ان سياسته العقيدية أيضا والتى كانت تسير فى ركاب الجيش ، كانت هى الأخرى عاملا هاما من العوامل التى ساهمت بدور ليس باليسير فى استفحال أمر الثورة الشعبية التى شهدتها القسطنطينية عام ٥٣٢ على النحو الذى رأينا • فبغض النظر عن المراسيم التى أصدرها جوستنيان ضد السامريين والماثويين والوثنيين واليهود ومختلف الطوائف الأخرى ، الذين « لا يستحقون الا كل الازدراء لأنهم لا يدينون بمذهب الدولة » ، أى

(106) IOAN. LYD. de magist. III 51.
وايضا : PROCOP. hist. arc. XIX.
(107) Id.
وراجع ايضا : Hodgkin, Italy and her Invaders, III, p. 553.
(108) Baker, Justinian, p. 88.

الأرثوذكسية الخلقيدونية(١٠٩) التى حاول جاهدا أن يجعل لهـا مكان الصدارة فى الامبراطورية(١١٠) ، الا أنه حاول فى عام ٥٢٩ ، استرضاء أهالى الولايات الشرقية الذين يدينون بالطبيعة الواحدة ، وذلك عن طريق اجراء حوار بينهم وبين الخلقيدونيين ، كما سمح باعادة الرهبان المنفيين من المونوفيزيتيين(١١١) • ولا شك أن الحرب الفارسية الدائرة هى التى دفعته الى مثل هذه السياسة لضمان هدوء المناطق الشرقية ، الا أن الحوار الذى دار بين أصحاب الطبيعة الواحدة وأصحاب الطبيعتين ، لم يسفر عن شىء حاسم ، بل لم يتعرض الامبراطور لشىء مطلقا فى البيان الختامى لهذه المحاورات ، عن نطاق الخلاف الجوهرى بين المنافزة والخلقيدونيين ، أعنى مسألة الطبيعة والطبيعتين(١١٢) •

الا أن هذا لم يكن يعنى للمنافزة سوى المزيد من سياسة التجاهل ثم العداء ، خاصة وأنهم قد عاشوا فتـرة آمنة على عهـدى زينـون وأنسطاسيوس ، وأن جوستنيان أبدى منذ فترة تواجده الى جـوار خاله جوستين ، وخلال السنوات الأولى من عهده هو ، انحيازا صريحا الى جانب الأرثوذكسذية الحكومية ، الخلقيـدونية ولكم كان يدور بخلـد جوستنيان أن يصبح سيد الكنيسة المطلق ، انطلاقا من الفكر السيـاسى الرومانى القائم على عدم السماح بوجود كيان مستقل أو دولة داخـل الدولة • ومن ثم حـرص على الاسـتحواز على الادارة الداخليـة للكنيسة (١١٣) • بل أقدم على اتخاذ خطوة لها خطورتها البالغة عندما أصدر قانونا نص على أن لقوانين المجامع المسكونية الأربعة الأولى ، نيقيـة

---

(109) CODEX Ius. Lib. I, Tit. V 11; Nov. VIII, 4; Nov. XLV.

(110) THEOPH. Chron. p. 276.
وأيضـا : MALALAS, Chron. p. 449.

(111) ZACH Chron. IX, 15.

(112) Jones, Later Roman Empire, I, pp. 285-287.
وأيضـا : Ure, Justinian and his Age, p. 112.

(113) IUS. Nov. VI prael., 1, 5; 42; CXXIII, 1.

والقسطنطينية وافسوس وخلقيدونية قوة القوانين الامبراطورية[١١٤] •
وكان هذا يعنى وضع الكنيسة تحت السيادة المدنية للامبراطور مباشرة ، باعتباره نائب المسيح على الأرض • وقد أفصح عن ذلك عندما اعتبر أن السلطتين ، الامبراطورية Imperium والكهنوتية Sacerdotium منبثقتان من مصد واحد ، وتمثل ذلك فى ديباجة احدى تشريعاته حيث قال: « ان أعظم الهبات التى من الله بها من عل على بنى البشر ، بحب الانسانية Philanthropia هى الكنيسة والامبراطورية ، الأولى ترعى ما يختص بالله ، والأخرى تعمل الفكر فيما يتعلق بحياة بنى الانسان »[١١٥] • وبناء على هذا المعتقد ، كان يؤمن تماما أن من حقه اقرار عقيدة بعينها لرعاياه ، اذ الناس عنده على دين ملوكهم[١١٦] •

ولما كان جوستنيان امبراطورا رومانى القلب والقالب ، يؤمن بعظمة الرومان وخلود روما ، فقد اعتبر الكرسى الرسولى فى روما رأس الكراسى الأسقفية الكبرى فى الامبراطورية دون منازع Caput omnium Sanctarum ecclesiarum ووضع كرسى القسطنطينية فى المرتبة الثانية بعد روما[١١٧] • ولا شك أن هذا كان يعنى احترام منصب الأسقف الرومانى ومخاطبته اياه فى رسائله بـ « البابا » و« الأب الرسولى »[١١٨] • ولما كان وقوف بابا روما الى جوار الامبراطور أثناء حروبه الاستردادية فى افريقيا وايطاليا ، أمرا لامندوحه عنه لنجاح هذا المشروع ، أضحى طبيعيا أن يكون ذلك على حساب أصحاب الطبيعة الواحدة فى الأقاليم الشرقية والقسطنطينية الذن ازداد سخطهم بصورة

---

(114) IUS. Nov. CXXXI, 1.

(115) IUS. Nov. VI praeb.

(116) Vasiliev, history of the Byzantine Empire I, p. 148.

(117) IUS. Nov. CXXXI.

(١١٨) لم يمنع هذا جوستنيان من الوقوف موقفا متشددا من بابا روما فيجيليوس Vigilius عندما شعر أن الأسقف الرومانى يحاوج الخروج على رأى الامبراطور فى المسألة العقيدية • راجع تفاصيل ذلك فى :
Jones, Later Roman Empire, I, pp. 296-298.

واضحة ، وكان هذا عاملا هاما أيضا من العوامل التى لعبت دورها الفعال فى ثورة « نيقا » عام ٥٣٢ •

ولأن الخضر ، الذين يلقون التأييد من جانب أنصارهم فى الأقاليم الشرقية ، هم الذين أطلقوا الشرارة الأولى لثورة القسطنطينية ، عندما أعلنوا سخطهم وتبرمهم أمام الامبراطور فى يوم الأحد ، الحادى عشر من يناير ، فى الهبدروم ، فقد اتخذ بعض المؤرخين من ذلك ذريعة لاعتبار هذه الثورة ثورة مونوفيزيقية بكل المعايير ، وفى مقدمة هؤلاء يأتى المؤرخ « باكر » Baker الذى يقول ان الثورة قامت بتحريض من المنافزة ، ويذكر أن جوستنيان كان يرى أن حزب الخضر كله من أصحاب الطبيعة الواحدة ، الذين يشكلون عدوا رسميا لسياسة الوحدة العقيدية فى الامبراطورية ، وأنهم أنصار الامبراطور الأسبق أنسطاسيوس • ثم يكتب بعد القضاء عليها : « الآن تم سحق الثورة التى عرفت مؤخرا باسم « فتنة النصر » ، ثورة الخضر والزرق ، وان كان من المفضل تسميتها ثورة المونوفيزيتيين »(١١٩) •

ومع عدم اغفال مظاهر السخط الدينى على السياسة العقيدية التى اتبعها جوستنيان ، الا أن ذلك لا يعنى التركيز على جانب واحد فقط ، ووصف هذه الثورة بأنها ثورة « دينية مذهبية » ان صح هذا التعبير ، خاصة وأن فرقا عديدة أخرى غير المونوفيزيتيين ، مثل المانويين والاريوسيين والسامريين وطوائف يهودية ومسيحية أخرى ، قد أضيرت بصورة واضحة من جراء التشريعات التى أصدرها ضدهم جوستنيان ، والتى تمتد من التضييق عليهم فى ممارسة طقوسهم ، الى الطرد من الوظائف العامة ، الى المصادرة والتدخل فى حق الوصية ، الى الاعدام ، نقول •• ان وصفها على هذا النحو يعد نوعا من المبالغة واغفالا لحقائق هامة أخرى كان لها دورها الكبير فى ثورة القسطنطينية •

(119) Baker, Justinian, pp. 82, 88, 98.

بل ان معاناة الوثنيين كانت أشد وأنكى ؛ فقد استخدم جوستنيان ، برواية المعاصرين ، أسلوبا عنيفا ضد الشخصيات الكبرى من الوثنيين الذين يشغلون عددا من المناصب الهامة فى الدولة، فأقصاهم عن وظائفهم، وصادر ممتلكاتهم ، وقاد بعضهم الى القتل (١٢٠) • على أن الصفعة القوية التى وجهت اليهم ، خاصة مثقفيهم وذوى الفكر فيهم ؛ هو القرار الذى أصدره فى عام ٥٢٩ باغلاق جامعة أثينا ، وحرم على الأساتذة الوثنيين الاشتغال بالتدريس(١٢١) ؛ ولم يجد هؤلاء أمامهم من سبيل سوى الهروب الى فارس ، والاحتماء بكسراها الذى رحب بهم • ومع أن هذا القـــرار قد جاء تمشيا مع السياسة العامة التى يتبعها جوستنيان ، لاقرار السيادة الأرثوذكسية الحكومية الخلقيدونية ؛ الا أنه يمكن القول انه قد اتخــذ لصالح جامعة القسطنطينية ، التى كان قد صدر قرار انشائها فى عام ٤٢٥ على عهد الامبراطور ثيودوسيوس الثانى •

ومع مرور قرن على انشاء جامعة القسطنطينية ؛ الا أن الشـــهرة الفكرية ظلت لجامعة أثيناء الوثنية ، وظل كثير حتى من آباء اللاهوت المسيحى فى الامبراطورية ، يتلقون تعليمهم فى أثينا • ومن ثم أيقن جوستنيان أن جامعة القسطنطينية «الوليدة» لن يكتب لها النجاح والذيوع مادامت جامعة أثينا قائمة ؛ فقضى بذلك على قلعة من أهم قلاع الفــكر الفلسفى فى الامبراطورية ، مما ترك آثاره وبصماته الواضـــحة على منطقة جنوب شرقى أوروبا ، متواكبا مع ما سبق من الغزو الجرمانى وهطول غزوات جديدة صقلبية وتركية على منطقة البلقان • فاذا أضفنا الى هذا أن جامعة القسطنطينية بمقتضى القرار الصادر من ثيودوسيوس الثانى بانشائها ، كانت تابعة تبعية مباشرة للسلطة الامبراطورية ، وأن جامعة أثينا كانت بعيدة عن مثل هذه السيادة ؛ أدركنا المخاوف الحقيقية التى كان جوستنيان يضعها فى حساباته ، باعتباره حاكما مطلق السلطان •

---

(120) PROCOP. hist. arc. XI.

وايضـــا : MALALAS, Chron. p. 449.

(121) MALALAS, Chron. p. 448.

ومن ثم أضاف جوستنين بقراره هذا الى قائمة خصومه ، خصوما آخرين من رجال الفكر وخاصة المثقفين •

هذه الناحية ، أعنى فكرة السيادة المطلقة ، نلمسها فى اختيـار جوستنيان لمعاونيه ، فقد كان حريصا على اختيار عناصر تعود الى أصول غير معروفة ، ودون النظر الى طبقاتها الاجتماعية(١٢٢) حتى يضمن ولاءهم الكامل وعدم معارضتهم له الرأى ، من ذلك مثلا اقدامه على عـزل ديموسثنيز Demosthenes النائب الامبراطورى العجوز ، والذى كان فيما يبدو زعيما لجماعة المحافظين من رجال السناتو ، والذين ساهموا بدور ملموس فى اختيار جوستنيان للعـرش ، وعين بدلا منه يوحنـا الكبادوكى(١٢٣) • وقد جلبت عليه هذه السياسة غضب كثير من العناصر النبيلة خاصة الطبقة السناتورية ، التى رأت فيه خصما عنيدا وتهديدا خطيرا لمصالحها ، بعد أن تأكد لديها بصـورة لا تقبل المناقشة عـزم جوستنيان على تحطيمها تماما ، وهى التى كانت قد نفضت عن نفسـها منذ ثلاثة أرباع القرن تقريبا ، غبار القرون الطويلة التى أريد لها خلالها أن تظل بعيدة عن المسرح السياسى فى الامبراطورية •

ولم يكن من السهل أن يلتقى أبدا فكر جوستنيان عن السـلطة المطلقة المستمدة من الله ، وتطلعات « الشيوخ » للقيام بدور فعال فى الحياة السياسية • وكان يبدو واضحا منذ النصف الثانى من القـرن الخامس ، أن الأباطرة — فى مواجهة ازدياد النفوذ الجرمانى فى بلاط العاصمة ، رأوا تشجيع النبالة الرومانية لتكوين جبهة مناوئة لهذه العناصر الجرمانية ، بل ان هذه الناحية تعود الى الى أوائل ذلك القرن ، على عهد الامبراطور أركاديوس Arcadius (٣٩٥—٤٠٨) عندما تزعم أحد الشيوخ ويدعى أروليان Aurelianus زعامة هذه الجبهة فى مواجهة القائد الجرمانى جايناس Gainas فى العاصمة • وظل هذا المد يعلو

(122) Holmes, Justinian and Theodora, II, p. 442.

(123) PROCOP. hist. arc. XI.

بشكل ملحوظ حتى ظهر بدور عملى فى الأحداث التى أعقبت وفاة الامبراطور ليو الأول عام ٤٧٤ ، وترك سميه وحفيده لابنته ، طفلا صغيرا يتولى الوصاية عليه أبوه الأيزورى زينون ، غير أنه لم يلبث أن مات بعد شهور قليلة ، لينتقل العرش الى أبيه ، الذى تعرض فى أول عهده للطرد من العاصمة ، الا أن السناتو نجح بالفعل فى اعادة العرش اليه ثانية ، بعد اغتصاب باسيليسكوس لهذا العرش فترة امتدت عشرين شهرا •

لكن السناتو وجد فى زينون وجماعته من الأيزوريين ، خطرا لا يقل عن الجرمان من قبل ، ولذا سعى جهده للتخلص من هذا النفوذ الأيزورى، ونجح فى النهاية فى تفويت الفرصة على لونجينوس Longinus شقيق زينون فى الاستيلاء على السلطة ، وتم اختيار مرشح آخر هو أنسطاسيوس امبراطورا •

على أن السناتو واتته الفرصة الذهبية بعد موت أنسطاسيوس ، دون أن يعقب ولدا ، ومع أنه كان له أبناء أخ ثلاثة ، بروبوس وبومبى وهيباتيوس ، الا أن النية بيتت على تجاهلهم من جانب الجيش والسناتو على السواء • وأقدم أمانتيوس Amantius كبير الأمناء فى البلاط ، على دفع مبلغ كبير من المال الى جوستين Iustinus الذى كان رئيسا للديادبة Excubitors احدى فرق الحرس الامبراطورى ، ليقدمه رشوة للجنود لاختيار شخص مغمور للعرش يدعى ثيوكريتوس Theocritus • وفى صبيحة التاسع من يوليو عام ٥١٨ ، شهد الهبدروم• كما يجرى دائما فى مثل هذه الظروف — تجمعا ضخما لأهالى القسطنطينية ، الذين راحوا يخلعون على السناتو آيات التبجيل والاحترام ، ويهتفون مطالبين مجلس الشيوخ باختيار الامبراطور الجديد ، وشهدت أروقة القصر وقاعاته اجتماعات عاجلة ، شارك فيها كبار الموظفين وأعضاء السناتو والبطريرك ، وانتهت الآراء الى ضرورة انتهاز هذه الفرصة حتى لا يسبقهم الجيش والغوغاء الى اختيار مرشح للعرش، هذا فى الوقت الذى لعبت فيه النقود التى فى حوزة جوستين دورها

لصالحه ، وليس من أجل ثيوكريتوس • وهكذا أقدم السناتو على اعلان جوستين امبراطورا ، وقدموه للجموع فى الهبدروم ، حيث هتفوا بحياته، وتم تتويجه على يد بطريرك القسطنطينية(١٢٤) •

وقد أقر جوستين بدور السناتو فى وثيقة رسمية بعد أيام قليلة من اعتلائه العرش ، وهى الرسالة التى بعث بها الى البابا فى روما ، وجاء فيها : « بنعمة الثالوث الأقدس ، واختيار كبار رجال قصرنا المقدس، ومجلس السناتو ، ثم مباركة الجيش وتأييده ، توليت قياد الامبراطورية(١٢٥) • وهىء للشيوخ على هذا النحو ، أنهم فى طريقهم الى أن يعود بهم الزمن ثانية الى القرنين الأخيرين من العصر الجمهورى الرومانى ، ووصلوا حبالهم بجوستنيان ابن أخت جوستين وولى عهده : حتى يجعلوا منه مستقبلاً رجلهم • وأفاد هذا من تطلعاتهم ، فأوحى اليهم أن يطلبوا الى الامبراطور ، أن يشرك معه ابن أخته ، بصورة رسمية ، فى ادارة شئون الدولة • غير أن جوستين رفض هذه المحاولة ، وحذرهم من تسليم مقاليد الأمور فى الدولة الى شباب غرير(١٢٦) • لكن السناتو جدد المحاولة ثانية حتى تمكن عام ٥٢٥ من اقناع جوستين بمنح ابن أخته لقب القيصر • ولم يمض على ذلك عامان حتى جرت مراسم تتويج جوستنيان امبراطورا شريكا وخاله على فراش الموت ، وشهد ذلك أعضاء مجلس الشيوخ وكبار الموظفين وقادة الحرس الامبراطورى(١٢٧) • وهكذا أصبح لدى السناتو كبير أمل فى أن يشارك عمليا فى صنع السياسة الامبراطورية ، بعد هذه الممارسة التى تصورها واقعا حقيقيا ، لاختيار

---

(١٢٤) راجع تفاصيل هذه الأحداث فى :
MALALAS, Chron. pp. 410-411

وايضا : Bury, Later Roman Empire, II, pp. 16-18.

وكذلك : Jones, Later Roman Empire, I, pp. 266-276.

(125) Bury, op. cit., p. 18.

(126) ZONAR. epit. XIV, 5.

(127) EVAG. hist. eccl. IV, 9.

أربعة أباطرة على التوالى[١٢٨] ، واعتقـدوا أن اختيار شـاب يافع في الاربعينيات من عمره ، كان الامبراطور العجوز جوستين قد حذرهم من مثله آنفا ، سوف يجعله أداة طيعة فى أيديهم ، وأن الامبراطور الجديد لن يعدو أن يكون رجلهم •

غير أن السناتو أصيب بخيبة أمل بالغة بعد سنوات قلائل من اعلان جوستنيان امبراطورا ، وتبين لهم أن « رجلهم » هذا ليس الا امبراطورا رومانيا حريصا على تراث الأسلاف فيما يتعلق بالسلطة الامبراطورية ، يعد نفسه خليفة القياصرة الرومان[١٢٩] ، رفع شعارا لا مواربة فيه ، مؤداه •• دولة واحدة وقانون واحد وكنيسة واحدة ، وهو السيد الأعلى فى هذه الدولة • وقد تضمنت تشريعاته ومراسيمه ، عزفا متواصلا على هذه النغمة التى لابد أن يعيها الجميع • وحمل جوستنيان كل الألقاب التى حملها من قبل الامبراطوران أوغسطس وتراجان ، وزاد عليها ، مثل « الامبراطور • القيصر • قاهـر الألمان والقوط والفرنجة والجـرمان والوندال والأفريقيين • التقى • المبتهج • الشهير • المنتصر • المظفر • الأوغسطس على الدوام »[١٣٠] •

وجاء فى ديباجة الأمر الصادر الى الفقيه تريبونيان ، بشأن القيام بجمع الفتاوى وأحكام المحاكم وآراء الفقهـاء والمشرعين ، وغربلتها ، وتقديمها بصورة ينتفع بها ، فيما عرف باسم الدايجستا Digesta جاء فى هذه الديباجة عن سلطة الامبراطور : « اننا نحكم امبراطوريتنا بتفويض من الله ، وهو فى عليائه قد تفضل بها علينا ، وبكل قلوبنا نرفع الى السماء أكف الضراعة ، سائلين عون الاله في أن يبارك خطونا ، فى اعادة بناء دولتنا • ان ثقتنا من ثم لا نضعها فى جيشنا ، القادة والجنود ،

---

(١٢٨) نعنى بذلك الأباطـرة : زينون وأنسطاسـيوس وجوسـتين وجوستنيان .

(129) Diehl, By Z antium, p. 30.

(130) Id.

ولا فى مقدرتنا ، بل نضعها كاملة فى السـماء ، فى الثالوث المقـدس وحده »[١٣١] .

ولم يمل الامبراطور جوستنيان من ترديد هذا المفهوم وتأكيده فى كل مناسبة تعن له ، وحملت تشريعاته صورة واضحة عن فكره حـول سلطة الامبراطور ، « ان الله قد أناب السلطة الامبراطورية لرعاية شئون العالم » ، « ان الله هو الذى وضع على رأسنا التاج ، وهو الذى خلـع علينا العباءة الأرجوانية ، وهو الذى فضلنا على كثير من السابقين»[١٣٢] . بل ان الفنان البيزنطى قد استوحى هذه الصورة عندما أبدع الفسيفساء الشهيرة التى تزدان بها كنيسة سان فيتـال St. Vitale فى رافنـا Ravenna بايطاليا ، والتى تصور جوستنيان وقد علته هالة ، مشيرا بذلك الى الملك الكاهن على رتبة « ملكى صادق » Melchisedech [١٣٣] .

وكان جوستنيان يدرك جيدا ما يصبو اليه السناتو ، ولم يكن هو بالتالى — فى ضوء هذه الأفكار — يريد مجلسا للسناتو على هذا النحو من التأثير فى الأحداث ، بل يريد « سناتو » يعبر عنه بروكوبيوس أصدق تعبير ، ليس فقط كما يريد الامبراطور ، بل ما أراد له فعلا بعـد ثورة عام ٥٣٢ ، مجرد « صورة معلقة على جدران الزمن ، مجـردا من كل سلطان ، لا يملك اصدار قرار أو يمتلك أية بادرة طيبة ، يجتمع فقط من أجل استكمال الشكل العام ، لا يسمح لأى من أعضائه أن ينبس ببنت شفة .. يصدق فى النهاية على كل ما يراه الامبراطور »[١٣٤] .

من هنا كان لابد أن يقع الصدام بين فكرين يقفـان على طرفى نقيض ، ومن هنا أيضا نستطيع أن نفسر أحداث الثـورة ، وأن نرتب أدوارها ، فالمطالبة بالعفو عن الرجلين اللذين نجيا من الاعدام ، ثم بعزل

---

(131) IUS. Digesta, I, praef.
(132) IUS. Nov. VI, praef.; Nov. XXX, 11.
(١٣٣) هسى : العالم البيزنطى ، ص ٢٣٩ .
(134) PROCOP. hist. arc. XIV, 10.

والى المدينة بودايمون ، كان يتفق وطبيعة سير الأحداث ، من القبض على الرجلين اللذين ينميان الى حزبى الزرق والخضر ، ورفض الامبراطور اجابة الحزبين الى ملتمسهم باطلاق سراح الرجلين ، أما اشراك يوحنا الكبادوكى وتريبونيان الفقيه والمحامى الذائع الصيت ، فلم يكن يعنى ، بتعبير زكريا المتلينى — الا اشتراك عناصر أخرى فى الأحداث وتسيرها لدفتها[١٣٥] • وقد علمنا من قبل الدور الذى اضطلع به يوحنا الكبادوكى فى السياسة المالية واظلرائيبية ، التى أثارت سخط جميع الطبقات وفى مقدمتها كبار ملاك الأراضى ، وهم يشكلون فى معظمهم الطبقة السناتورية النبيلة • أما تريبونيان فقد كان دور رجال السناتو فى المطالبة باقصائه عن منصب الكويستور ، واضحا ، فهو الذى أحاط السلطة الامبراطورية المطلقة التى أرادها جوستنيان بسياج قانونى ، ووضع لها الضمانات الكافية التى تجعل من الامبراطور السيد المطلق ، البانتوقراطور Pantocrator ، حتى جرى على ألسنة الجميع آنذاك ، ان كل ما يشاء الامبراطور ، له قوة القانون[١٣٦]

Quod principi placuit, legis habet Vigorem

وقد عد تريبونيان مسئولا مسئولية كاملة عن كل ما يتصل بالناحية التشريعية ، أو بتعبير آخر ، عن تقنين السلطة الامبراطورية المطلقة[١٣٧] •

على هذا النحو يمكننا القول ، ان الأمور خلال اليومين الأولين للثورة ، ١١ و١٣ يناير ، كانت بيد زعماء حزبى الزرق والخضر ، وكانت مطالبهم تنحصر فقط فى التماس العفو عن الرجلين الناجيين من المشنقة ، وان كان يعنيهم ما حدث من بعد من المطالبة بعزل يودايمون والى المدينة •

---

(135) ZACH. Chron. IX, 14.
(136) Kolbert, The Digest of Roman law, p. 17.

(١٣٧) لم يسلم تريبونيان من قلم بروكوبيوس اللاذع ، حيث وصفه بالجشع والنهم الشديد لجمع الأموال ، شأنه فى ذلك شأن يوحنا الكبادوكى ، حتى أنه كان على استعداد لتغيير القوانين وتبديلها وبيعها لمن يشاء . ولكن بروكوبيوس لم يستطع انكار ثقافة تريبونيان العريضة « التى لا يدانيه فيها أحد من معاصريه » ، حسب تعبيره . انظر :

PROCOP. bel. pers. I, XXIV, 16.

ولم يخرج ما حدث خلال هذين اليومين فى الهبدروم ، عن غيره مما كان حدث من الاضطرابات تشهدها العاصمة من قبل ومن بعد • حتى اذا كان اليوم الثالث للثورة ، الأربعاء ١٤ يناير ، وطالب الثائرون بعزل يودايمون ويوحنا الكبادوكى وتريبونيان ، أمسى واضحا أن القيادة أفلتت من يد زعماء الحزبين ، انتقلت الى « أفراد معينين » بقول زكريا المتلينى ، كما أسلفنا • ولم يكن هؤلاء « الأفراد المعنيون » سوى رجال السناتو ، الذين أفصحوا عن نياتهم الحقيقية وكشفوا عن وجوههم ، منتهزين فرصة هذه الاضطرابات ، ليضربوا ضربتهم والحديدة محماة • وتمثل ذلك على الفور فى تحريض الجموع الذين امتلأت بهم العاصمة ، على الذهاب مباشرة الى دار « بروبوس » ابن أخ أنسطاسيوس ، للمناداة به امبراطورا ، وكان هذا فى اليوم الثالث للثورة ، أو بتعبير أدق ، فى اليوم الأول للثورة الحقيقية ، بعد أن أصبح واضحا أن الهدف ليس فقط عزل الوزراء الثلاثة ، بل اختيار امبراطور جديد • ومن ثم يمكن أن يعزى الى رجال السناتو ، كما قول بيورى Bury فشل سياسة الترضية التى اتبعها جوستنيان ، عندما رضخ لمطالب الثائرين وعزل وزرائه الثلاثة ، ولم يحل دون تحقيق رغبة السناتو ، سوى رفض « بروبوس » ووجود الأخوين « بومبى » و« هيباتيوس » داخل القصر الامبراطورى • فاذا ما أمرهم جوستنيان بمغادرة القصر ، حتى اهتبلوا الفرصة ، وأكرهوا هيباتيوس على ما أخفقوا فيه مع بروبوس •

بل لقد ذهبت بهم الحماسة مبلغها ، عندما عقدوا اجتماعهم الخطير الذى حدثنا عنه باستفاضة بروكوبيوس ، وقرروا قيادة هجوم الثائرين على القصر الامبراطورى ، بعد أن نقل اليهم من كانوا بداخله ، حالة التردى والضعف الذى كان عليه القصر • ولم يصغ هؤلاء المتحمسون لصوت العقل والتروى الذى خاطبهم به أحد زعمائهم ، أوريجن ، بترك الأمور تجرى فى مجراها الطبيعى ، حتى يسقط العنصر بمن فيه دون عناء ، « اننا اذا ما عالجنا هذه الحالة بترو ، أصبحنا قادرين على أن نأخذ جوستنيان فى قصره ، لكنه لا شك سوف يكون أكثر وأسرع شكرا

لو سمح له بالفرار !! ذلك أن السلطة التى يتم تجاهلها تفقد سلطانها ، وينحسر يوما بعد يوم عنفوانها »[139] • لكن المؤتمرين ضربوا عرض الحائط بحديث أوريجن ، واعتقدوا ــ كما يقول بوكوبيوس بالحرف الواحد ــ : « ان هذه هى الفرصة المناسبة لتحقيق أهدافهم[140] • ولعل القرار الذى اتخذه جوستنيان بعد القضاء على الثورة ، بالقبض على ثمانية عشر عضوا من أعضاء مجلس السناتو ، ومصادرة ممتلكاتهم ، ليعد دليلا عمليا على السياسة التى أعلن الامبراطور ، بهذا التصرف ، عن اتباعها فى المستقبل ازاء أعضاء مجس الشيوخ •

ولم يكن تأثير الحرس الامبراطورى ، القوة الضاربة فى الجيش ، فى أحداث هذه الثورة ، يقل شيئا عن تأثير السناتو ، ان لم يكن يفوقه !! على الرغم من أن دور كل منهما كان يختلف اختلافا جذريا عن الآخر ، وان بدا متمما له لابتغائهما شيئا واحدا فى النهاية • فبينما كان موقف السناتو ايجابيا تماما ، كان دور الحرس الامبراطورى يمثل السلبية بعينها ، لكنها السلبية المدمرة ، حتى اننا لا نستبعد حدوث تنسيق بين كل من الطرفين ، دليلنا على ذلك تطور الأحداث خلال أيام الثورة ، وما كتبه مؤرخ معاصر قريب من الأحداث ، كان يرويها من داخل القصر الامبراطورى ، هو بروكوبيوس ، رغم أنه لم يقف عند بعض التفصيلات •

فقد كان الحرس الامبراطورى يتولى تأمين الاتصال بين القصر والمقصورة الامبراطورية بالهبدروم ، عبر الدهليز الموصل بينهما ، فلما تقرر مهاجمة الثائرين فى المضمار ، بعد الخطاب الذى ألقته ثيودورا خلال اجتماع « اليأس » الذى عقد بالقصر ، صبيحة الأحد الثامن عشر من يناير ، كان على « موندوس » أن يفاجىء الهبدروم من أحد بواباته الخارجية ، بينما يقوم « بليزاريوس » بالوصول مباشرة من داخل القصر الى المقصورة ، وتوجه ضربة مؤثرة للثائرين ، وذلك بمباغتتهم على

(139) PROCOP. bel. Pers. I, XXIV, 29.
(140) Ibid. 31.

هذا النحو ، والقبض على هيباتيوس ، لحرمانهم من ثمرة انتصارهم • ولا شك أن هذه الخطة كانت كفيلة بتحقيق نجاح يكاد يكون مؤكدا ، بدلا من المغامرة غير المضمونة التى قام بها بليزاريوس مؤخرا ، بمهاجمة الهيدروم من خارج القصر ، كما فعل موندوس • لكن قوات الحرس الامبراطورى تصدت لبليزاريوس وقواته ، ورفضت السماح لهم بالمروق الى المقصورة مباشرة •

ولم يكن هذا الموقف جديدا على هذه « القوات النظامية » ، فخلال حرب الأيام الثلاثة (١٥—١٧ يناير) التى دارت فى شوارع العاصمة ، بين بليزاريوس والثائرين ، لم يبد الجنود أى استعداد للمشاركة فى هذه الحرب الى جانب الامبراطور ، مما أدى الى فشل بليزاريوس بقواته القليلة المكونة من القوط ، والتى كان قد عاد بها مؤخرا من الجبهة الفارسية ، فى حسم هذه المعركة لصالح الامبراطور • ولعل هذا هو الذى دفع جوستنيان الى الاقدام فى مساء السابع عشر من يناير ، على طرد كل من بومبى وهيباتيوس من القصر ، كما طرد أيضا رجال السناتو القابعين بداخله ، ولا ريب أن الشكوك قد ساورته فى احتمال أن تكون هناك مؤامرة ، قد تم تدبيرها بين كل من رجال السناتو داخل القصر وقوات الحرس الامبراطورى ، لاعلان أى من الأخوين امبراطورا بعد القبض على جوستنيان أو اغتياله ، بعد أن انتهت الحرب الأهلية دون أى نتيجة حاسمة فى جانب الحكومة • ويقول بروكوبيوس بالحرف الواحد : « لقد كان الجنود جميعهم ، حتى أولئك الذين فى بلاط الامبراطور ، غير راغبين فى مساعدته ، أو اتخاذ أى اجراء فعلى من أجل مقاومة الثورة ، بل كانوا ينتظرون ما تسفر عنه الأحداث فى المستقبل !! »[١٤١] •

وقد يؤكد هذه الناحية ، ما كان معروفا من أن الفرقة القديمة فى الحرس الامبراطورى ، الـ Scholae كانت على صلة وثيقة بالسناتو ، بينما الفرقة الأخرى ، الـ Excubitors كانت تميل بين الحين والآخر

(141) PROCOP. bel. Pers. 1, XXIV, 39.

الى جانب الخضر ، وبولائها للامبراطورين ليو الأول وزينون ، اللذين كانا لهما الفضل فى تقويتها وتدعيمها(١٤٣) ، وأن هذه الفرقة الأخيرة التى كان جوستين يتـولى قيادتها قبل اعتـلائه العرش ، قد حنقـت على الامبراطورين جوستين وجوستنيان ، ميلهما الى الزرق • ومن ثم ليس من الصعب تفسير الموقف الذى اتخذه الحرس الامبراطورى •

على أن الدافع الحقيقى الذى حدا بالحرس الامبراطورى الى اتخاذ هذا السبيل ، كان أبعد من ذلك بكثير • فالآمال التى كانت تداعب خيال السناتو ، بعصر يعود له فيه عرشه القديم فى ظل النظام الجمهـورى الرومانى ، كانت هى الأخرى تتراقص أمام عينى الحرس الامبراطورى • فقد أدرك هو الآخر أن جوستنيان يرسى قواعد ثابتة لنظام حكم مستقر ، نصبح كلمة الامبراطور فيه هى العليا • وراح يترحم على أيام خلت كان للجيش فيها القول الفصل فى اختيار الجالس على عرش الامبراطورية ، واذا كانت المسائل تقاس بالمصالح الخاصة ، فان عصر الجيش الزاهر ، بمقاييسه طبعا ، فى ممارسة لعبة السياسة ، واجادة فنونها ، وان جرى على حساب النظام العسكرى ، كان هو الفترة الممتدة الى نصف قرن ، بين عامى ٢٣٥ — ٢٨٤ ، وهى التى اصطلح المؤرخون على تسميتها بأزمة القرن الثالث • فقد قام الجيش خلالها باختيار ستة وعشرين امبراطورا ، وقام أيضا بانهاء حياة خمسة وعشرين منهم قتلاً !! واضعا أمام ناظرية عبارة سبتميوس سفروس لولده ، « أجزل العطاء للجند ولا تلق بالا للاخرين » • بل ان غالة وحدها شهدت بين سنتى ٢٥٧ — ٢٧٣ خمسة أباطرة ! وحتى عندما حاول دقلديانوس Diocletianus (٢٨٤—٣٠٥) اعادة الهيبة الى المنصب الامبراطورى ، وايجاد نظـام بديل عن هـذه الفوضى ، فى اطار اصلاحاته السياسية ، وأقدم على اتخاذ النظام الرباعى لادارة الامبراطورية ، لم يلبث هذا النظام أن لقى حتفه بعد اعتـزال دقلديانوس عام ٣٠٥ بسنه واحدة ، وعادت الفوضى من جديد لتشـهد

---

(142) Lindsay, Byzantium, p. 55.

الامبراطورية على عرشها فى عام ٣٠٨ ستة أباطرة ! وكان لابد أن ينهار النظام الرباعى ، لأنه اعتمد أساسا على شخص واضعه ، ولم يرتكز على قاعدة سياسية معينة • وعادت الحرب الأهلية من جديد ، تشغل قاعدة الفيالق الرومانية طوال ثمانية عشر عاما (٣٠٦-٣٢٣) حتى انتهى الأمر بانفراد قسطنطين بالسلطة (١٤٣) •

وحتى قسطنطين نفسه،كان اختياره للعرش عام٣٠٦ على « يدالفيلق الرومانى فى بريطانيا » فى السنة التى أعلن فيها الحرس الامبراطورى اختيار ماكسنتيوس امبراطورا فى روما • غير أن قسطنطين بذكائه السياسى نجح فيما فشل فيه أسلافه ، من اقرار نظام ثابت لاعتلاء العرش الرومانى ، وهو ما كانت تفتقر اليه الامبراطورية منذ سنى عمرها الأولى، أى منذ جرد السناتو عمدا من ممارسة اختصاصاته فى هذا السبيل ، وانتقل الأمر الى الجيش ، وأمست الحال الى فوضى • وعلى الرغم من أن الامبراطورية كانت تحكم منذ عصر أوغسطس أوكتافيانوس حكما استبداديا ، الامبراطور فيه صاحب السلطة المطلقة ، حتى وان كان هذا الاستبداد مقننا زمن أوغسطس بمقتضى السلطات الاستثنائية التى خلعها عليه مجلس الشيوخ ، الا أن أحدا من الأباطرة لم يكن قادرا على المجاهرة بالتخلى عن التقاليد الجمهورية القديمة ، حتى وان استطاع بعضهم ذلك ، لكنه لم يكن القاعدة ، أعنى بذلك مبدأ وراثة العرش • ومع أنه كان مرفوضا باعتباره خروجا على التقاليد الجمهورية الرومانية ، الا أننا نجده قائما مثلا فى أسرة سفروس وأسرة الأنطونيين • وان لم يمثل ذلك قاعدة معترفا بها ، حتى أن دقلديانوس نفسه ، عندما أقدم على اقرار النظام الرباعى ، ابتعد عن مسألة الوراثة تماما(١٤٤) •

---

(١٤٣) للمزيد من التفاصيل عن أحداث هذه الفترة ، ودور الجيش فيها ، راجع كتابنا : الدولة والكنيسة ، الجزء الثانى ، الفصل الأول •

(١٤٤) فى أطار هذا النظام كان دقلديانوس يعتبر الامبراطور أو السيد الأول ، وقد اختار عام ٢٨٦ ماكسيميانوس زميلا له فى النصف الغربى ، وحمل كل منهما لقب أوغسطس • وفى عام ٢٩٣ اكتمل هيكل الحكومة الرباعية ، =

لذا أقدم قسطنطين وقد تمثل له كل هذا ، على اقرار مبدأ وراثة العرش الرومانى ، طريقا لاختيار الامبراطور الجديد ، وسبيلا لايجاد الاستقرار السياسى فى الامبراطورية ، وان ظل مبدأ اختيار الامبراطور قائما من الناحة النظرية تقليدا رومانيا • ومن ثم فانه عمد قبل وفاته الى اعلان أبنائه الثلاثة قياصرة ، وقسم فيما بينهم ادارة الحكم فى الامبراطورية ، وتدعم هذا أيضا باتباع الامبراطور ثيودوسيوس الأول له (٣٣٨—٣٩٥) ، عندما عهد الى ولديه أركاديوس Arcadius وهونوريوس Honorius بادارة شئون الحكم فى الامبراطورية من بعده •

ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل أضفى قسطنطين على منصب الامبراطور نوعا من القداسة ، اذ لم يعد مقبولا فى ظل تحول الامبراطورية الى المسيحية ، أن يظل الامبراطور مؤلها ، ولا أن يحمل لقب الكاهن الأعظم Pontifex Maximus ومن ثم فليحل « الأسقف الأعلى » محل الأخير(١٤٥) ومع أن هذا اللقب — أعنى « الأسقف الأعلى » ليس موجودا من الناحية الرسمية ، الا أن الامبراطور راح يمارس سلطات كل هذا اللقب فوق أساقفة الكنيسة ، التى غدت فى بيزنطة دائرة من دوائر الحكومة ، وغدا قسطنطين بقلم يوساب القيسارى ، مؤرخ الكنيسة ومداح الامبراطور ، الحوارى الثالث عشر للمسيح ، بعد

=

عندما عين دقلديانوس مساعدين ، أحدهما فى الشرق هو جاليريوس ، وثانيهما فى الغرب هو قسطنطيوس وخلع على كل منهما لقب قيصر ، فلما كان عام ٣٠٥ وأعلن دقلديانوس وزميله اعتزالهما ، وارتقى القيصران الى مرتبة الأوغسطسية ، تم اختيار قيصرين جديدين هما ماكسيمين دايا فى النصف الشرقى ، وسفروس فى النصف الغربى • وغض الطرف تماما عن ماكسنتيوس ابن ماكسيميانوس وقسطنطين بن قسطنطيوس ، اللذين نادت بهما الجنود بعد ذلك امبراطورين ، راجع للباحث الدولة والكنيسة ، الجزء الثانى ، الفصل الثانى •

(١٤٥) من المعروف أن لقب الكاهن الأعظم ظل الأباطرة يحملونه رغم تحولهم الى المسيحية صراحة ابتداء بأبناء قسطنطين ، الى أن تخلى عنه الامبراطور جراتيان Gratianus فى سبعينيات القرن الرابع •

أن خلع هو على نفسه صفة « مبعوث العناية الالهيـــة »[١٤٦] ، ولقيت النظرية اليوســابية ، التى بشرت بامبراطورية مسيحية ، نجــاحا زمن قسطنطين ، ورواجا على عهد خلفائه ، بحيث أضحت « القيصرية البابوية » Caesropapism عنوانا على السلطة الامبراطورية فى بيزنطة ، وليمسى الامبراطور بكل المعايير « نائب المسيح » على الأرض ، وهى القاعدة التى حاول جوستنيان ارساءها بكل قواه ، وراح يركز عليها دائما فى معظم تشريعاته التى صاغها له الفقيه ورجل القانون الشـــــهير تريبونيان •

كان هذا كله ماثلا فى ذهن الحرس الامبراطورى ، كما كان ماثلا فى ذهنه أيضــا أن الامبراطورية قد شهدت بمقتضى نظام قســطنطين السياسى وحتى الآن أسرتين فقــط ، هما أسرة قســـــطنطين وأسرة ثيودوسيوس ، وأنها منذ وفاة ثيودوسيوس الثانى عام ٤٥٠ وحتى سنة ٥١٨ ، أى قرابة ثلاثة أرباع قرن الا قليلا ، وهى تحكم بأفراد لا ينتمون الى أسرات بعينها ، وليس لهم أصول اجتماعية مرموقة ، ولم يكون أحدهم أسرة تتوارث العرش[١٤٧] • ولم يغب عن ذهن العسكريين أنهم ساهموا بدور ما فى صنع هذه الأحداث خلال هذه الثمانى والستين سنة ، وأملوا أن يعود اليهم دورهم القديم قبل أن يضع قسطنطين قاعدة وراثة العرش الامبراطورى ، وقبل أن يقدم جوستنيان على أن يمكن لهذا النظــام فى الأرض بشكل قانونى • لهذا كان طبيعيا أن يقف الجنود هذا الموقف المتسم بالسلبية الكاملة ازاء ما يجرى لامبراطورهم « انتظارا لما تســفر عنه الأحداث فى المستقبل » ، حسب تعبير بروكوبيوس ، لأنهم بتعبيره أيضا

---

(١٤٦) يمكن أن نطالع رسائل قسطنطين الى الأساقفة ، ورسالته الى ملك فارس ، وهى مبسوطة كلها فى كتاب « حياة قسطنطين Vita Constantini » الذى وضعه يوساب فى مدح الامبراطور ، ورفع فيـــه قسطنطين الى عليين • وقد بسطت هذه الآراء تفصيلا فى الأجزاء الثلاثة ، الثانى والثالث والرابع ، التى صدرت من كتابنا : الدولة والكنيسة .

(١٤٧) هؤلاء الأباطرة على التوالى هم : مارقيان ، ليو الأول ، زينون ، باسيليسكوس ، ثم زينون مرة أخرى ، فأنسطاسيوس ، ثم جوستين •

« كانوا قد عزموا على عدم الانحياز لأى من الطرفين ، حتى يتبين بصورة واضحة رجحان كفة أي منهما » (١٤٨) .

ويجب أن لا يغيب عن أذهاننا فى خضم هذا العــرض للدوافع والظروف التى قادت الى ثورة القسطنطينية هذه ، العامل الشــخصى أحيانا ضمن هذه الدوافع . فالسناتو لم ينس مطلقا أن جوستنيان وهو بعد وليا للعهد ، راود خاله جوستين عن القانون الذى يحرم زواج لاعبات المسرح من أعضاء مجس الشيوخ ، وما زال يراوده حتى ألغاه ، ليتسنى له الاقتران بأشهر لاعبــة للمسرح فى بيزنطة ، ثيــودورا . ولم يلق جوستنيان بالا لكل ما قيل عن امرأة لاكت الألسن سيرتها حتى اضطرتها الى هجران دنيا العاصمة ، الى الشرق ثم الى ليبيا ، ثم لتعــود الى القسطنطينية ، تعكف على مغزلها ، وصمم على أن يجعل من ثيودورا امبراطورة متوجة ، ليس فقط امبراطورة شريكة ، بل امبراطورة فعلية تجلس على عرش العالم الرومانى . هــكذا ارتقت ثيودورا ، الممثــلة المتوجة ، بتعبير شارل ديل ، من كواليس المسرح الى عرش القياصرة (١٤٩) . وكان على جميع الطبقات وفى مقدمتهم رجال السناتو ، بل والاكليروس ، أن يحنوا هاماتهم أمام هذه « الممثلة المتوجة » . أما الجموع التى كانت تلتهب بالتصفيق أكفها لرقصات مبتذلة خليعة كانت ثيودورا تؤديها من قبل على المسرح ، كان عليها الآن أن تهتف باسمها بكل الولاء والتبجيل ، وتمد أيديها ترجو عفوتها ورعايتها ، أليست مقدســة !! بل كان على رجــال الاكليروس أن يخروا أمامها ركعا ، ويدعونها « السيدة .. صــاحبة العصمة .. صاحبة الجلالة » . وليس هناك كاهن مسيحى واحد — كما يقول Hodgkin — أبدى احتجاجه على هذا التملق المخزى ! (١٥٠) .

ولعل ما أقدم عليه رهبان دير كونون من استخلاص الرجلين من يد الجلاد ، بعد نجاتهما من عملية الشنق ، وحمايتهم لهما فى كنيسة سان

---

(148) PROCOP. bel. Pers. I. XXIV, 45.
(149) Diehl, Theodora, Empress of Byzantium, p. 1.
(150) Hodgkin, Italy and her Invaders, III, p. 545.

لورانس ، ورفض تسليمها لجنود والى المدينة يودايمون ، الذين فرضوا حصارهم على الكنيسة ، لعل هذا التصرف يعد تعبيرا عن حالة الامتعاض من جانب الرهبان ، خاصة اذا علمنا أن الامبراطور جوستنيان كان قد تدخل بصورة سافرة فى تنظيم حركة الرهبنة ، ونشاطات الأديرة ، وطرق انشائها وتنظيمها ، وأصدر فى ذلك عددا من التشريعات المتعلقة بصميم الحركة الديرانية • وعلى الرغم من أن هدف جوستنيان كان انتشال الأديرة من الفساد الذى تردت فيه ، الا أن ذلك لم يشفع له عند الرهبان الذين عدوا قراراته تدخلا سافرا فى شئونهم[١٥١] •

ولم يكن نساء الطبقة الراقية فى العاصمة ، أقل حقدا من أزواجهن وحسدا ، على السيدة الأولى فى الامبراطورية ، التى ارتفعت من أزقة القسطنطينية ، والتى لم تكن سوى ابنة حارس الدببة فى الهبدروم ، الى عرش القياصرة • وكان عليهم الآن أن ينحنين أمامها فى حفلات الاستقبال الرسمية • لذا لا نعجب اذا رأينا المؤرخين المعاصرين حدثوننا عن اشتراك بعض نسوة هذه الطبقة الراقية فى الثورة ، خاصة ابان الأيام الثلاثة للحرب الأهلية[١٥٢] •

هكذا تجمعت كل هذه العوامل الاقتصادية والعقيدية والسياسية لدى السناتو والجيش ، وكذا الشخصية ، لتصنع ثورة القسطنطينية عام ٥٣٢ • لم تكن مجرد مؤامرة دبرها الاخوة الثلاثة أبناء أخ أنسطاسيوس ، بروبوس وبومبى وهيباتيوس ، وقدموا الرشوة للثائرين ، كما يصورها المؤرخ المعاصر القومس ماركللينوس[١٥٣] Marcellinus Comes والذى كان ينتمى بولائه للقصر ، متعاطفا مع النظام القائم ، ولم تكن فقط

---

(151) IUS. Nov. CXXXIII.

(152) ZONAR. epit. XIV, 6; PROCOP. bel. Pers. I, XXIV, 6.

(١٥٣) أعد بيورى دراسة قيمة تحت عنوان The Nika Riot لم يناقش فيها الثورة وملابساتها ودوافعها ، لكنه اهتم بمقارنة كتابات المؤرخين المعاصرين عنها ، ومدى التشابه والاختلاف بين كل منهم • راجع هذا المقال القيم فى (JHS. 17, 1897, pp. 92-119)

مجرد احتجاج على جشع وسوء ادارة يوحنا الكبادوكى المالية ، كما يجمع بروكوبيوس ويوحنا الليدى وزكريا المتلينى ، على النحو الذى أوضحنا من قبل • ولم تكن « ثورة مونوفيزيتية » فحسب كما صورها « باكر » BaKer [154] ، ولم يكن هدفها الوحيد فقط هو جوستنيان أو تغيير الأسرة الحاكمة كما يذهب بيورى[155] لأن الاطاحة بجوستنيان جاءت نتيجة طبيعية لفشله فى علاج الأمور ، وليس سببا فى قيام الثورة نفسها[156] •

وليس أصدق فى وصف هذه الثورة مما لخصه المؤرخ المعاصر يوحنا الليدى بقوله : « لقد نظمت هذه الثورة بيد كل العناصر الساخطة التى كانت تموج بها العاصمة »[157] ، كبار الملاك والفلاحون ، كبار التجار والحرفيون ، المثقفون والمحامون ، اليهود والوثنين ، المانويون والسامريون ، المونوفيزيتيون والاريوسيون ، السناتو والحرس الامبراطورى ، والنساء • ومن هنا جاءت تسميتى لها منذ البداية بـ « الثورة الشعبية » • ولم أعن بها ما قد يتبادر الى الذهن للوهلة الأولى ، عامة الشعب وجموع رجل الشارع ، بل قصدت عمدا جميع فئات الشعب التى احتوتها القسطنطينية ، على النحو الذى شكا منه جوستنيان فى احدى تشريعاته •

لم تكن الثورة تستهدف الجالس على العرش ، بل كانت تستهدف العرش نفسه ، لم تكن تبغى الاطاحة بحكومة جوستنيان ، بل كانت تود القضاء على نظام الحكم نفسه ، ذلك النظام الذى وضعه قسطنطين فى ثلاثينيات القرن الرابع ، ويمكن له الآن فى الأرض ، بقوة القانون وسلطان القداسة ، « نيابة عن المسيح » ، جوستنيان ، دون اعتبار للسناتو والجيش ، ألم يعلن ذلك صراحة فى قوانينه ، بأنه يستمد سلطانه من الله

(154) Baker, Justinian, p. 87.
(155) Bury, Later Roman Empire, II, p. 42.
(156) Cameron, Circus Factions, p. 280.
(157) IOAN. LYD. de magist. III, 72.

وحده ، ولس من السناتو أو الجيش ؟ لقد كانت الامبراطورية تمر بفترة انتقال وتحول من عصر روماني الى عصر بيزنطي ، على امتداد القرون من الرابع الى السابع ، تختلط الأفكار وتموج الآراء وتتصارع النظم ، بين تراث يوناني روماني قديم ، ومبادىء عقيدة مسيحية ، وفلسفات يونانية سائدة ، ونظام سياسي في محك التجربة • ولم يكن من السهل على كبار الملاك أن يتنازلوا عن سلطانهم الذي حققوه خلال فترات القرن الثالث والرابع ، عندما أصبحت الملكيات الكبيرة عصب النظام الاقتصادي الروماني • ولم يكن من اليسير على الجيش أن يتخلى طواعية عن ادعاء بحق مارس به لعبة السياسة زمنا ليس قصيرا • ولم كن مقبولا لدى السناتو أن يرى عرش سلطانه يهتز والى الأبد ، ليصبح مجرد صورة معلقة على جدران الزمن ، دون أن يصارع من أجل البقاء •

لقد كانت الثورة بكل عناصرها الساخطة التي شاركت فيها ، تعبيرا عن الصراع الذي يعتمل بين هذه التيارات جميعها ، في مرحلة التحول من العصر الروماني الى العصر البيزنطي ، بكل مفاهيمه ونظمه السياسية والاقتصادة والعسكرية والعقيدية والثقافية ، ومحاولة أخيرة لم تشهدها الامبراطورة من بعد على امتداد تاريخها ، لأن كل ما حدث من تمرد ضد السلطة الامبراطورية من بعد ، على امتداد تاريخ الابراطورية ، كان موجها ضد الجالس على العرش فقط ، ولكن في ظل النظام القائم •• ولم يكن هدفه الاطاحة بالنظام كله ، كما كان الطابع المميز والفريد للثورة الشعبية في القسطنطينية عام ٥٣٢ •

المصادر والمراجع

أولا — المصــادر

— CSHB : Corpus Scriptorum Historaiae ByZantinae.

— CHRONICON PASCHALE, in CSHB, 2 vols. ed. L. Dindorf, Bonn 1832.

— CONSTANTINUS PORPHYROGENITUS : De A dministrando Imperio, trans. by R. J. H. Jenkins, Budapest 1949.

— EVAGRIUS, Historia Ecclesiastica. London 1854.

— IOANNES LYDUS, De Magistratibus, in CSHB. ed. I. Bekkeri, Bonn 1837.

— IOSHUA THE STYLITE, Chronicle, trans. by w. wright, Cambridge 1882.

— IUSTINIANUS,

— Codex Iustinianus, traduction, Tome Premier, Paris 1806.

— Digesta, trans. by C. H. Monro, 2 vols. Cambridge, 1904-1909.

— Novellae, traduction, 2 tom. Paris 1811-1812.

— LACTANTIUS, De mortibus Persecutorum, in Ante Nicene Fathers, ed. A. Roberts and J. Donoldson, Michigan, S. D.

— MALALAS, Chronographia, in CSHB. ed. L. Dindorf, Bonn 1831.

— MARCELLINUS Comes, Chronicon, in P. L. vol. LI, ed. Migne, Paris 1846.

— PROCOPIUS, Historia arcana, trans. by G. A. Williamson, London 1966.
De Bello Persico, trans. by H. B. Dewing, in 2 vols. London 1914.

— SOZoMENOS, Historia Ecclesiastica, in Nicene Fathers, vol. II, ed. philip Schaff and H. wace, Michigan 1891.

— THEIDORETUS, Historia Ecclesiastica, in Nicene Fathers, vol. III, ed. Philip Schaff and H. wace, Michigan 1891.

— THEOPHANES, Chronographia, in CSHB, 2 vols. ed. I. elassen, Bonn 1839.

— ZACHARIAH of MITYLENE, The Chronicle, trans. by F. J. Hamilton and E. W. Brooks, London 1899.

— ZONARAS, Epitomae Historiarum, in CSHB. 3 vols. ed. M. Pinder and TH. Buttner- wobst. Bonn 1897.

ثانيا — المراجع

— Baker. (G. P.), Justinian, London 1932.

— Bury (J. B.), History of the Later Roman Empire, 2 vols. London 19931.

The Nika Riot, in JUS, XVII, 1897.

— Cameron (A.), Circus Factions; blues and greens at Rome and Byzantium, Oxford 1976.

— Demes and Factions, in Byzantinische Zeitschrift, 1974.

— Heresies and Factions, in Byzantion, XLIV, 1974.

— Diehl (Ch.), Byzantium : Greatness and Decline, trans. from the French by Noami walford, New Brunswick 1957.

— Theodora, Empress of Byzantium, New York 1972.

— Downey (G.), Constantinople in the Age of Justinian, Oklahoma 1960.

— Hodgkin (TH.), Italy and her Invaders, vol. III, Oxford 1896.

— Holmes (W. G.), The Age of Justinian and Theodora, 2 vols. London 1912.

— Jarry (J.), Hérésies et Factions dans L'Empire Byzantin, du IV, au VII, Siecle, Le Caire 1968.

— Jones (A. H. M.), Constantine and the Conversion of Europe, London 1948.

— The Later Roman Empire, 3 vols, Oxford 1964.

— Kolbert (C. F.), The Digest of Roman Law, Penguin Book, 1979.

— Lindsay (J.), Byzantium into Europe, London 1952.

— Manojlovic (G.), Le Peuple de Constantinople, in Byzantion XI, 1936.

— Stein (E.), Histoire du Bas-Empire, Tome 2, Paris 1950.

— Ure (P. N.), Justinian and his age, Pengui Book 1951.

— Vasiliev (A.A.), A history of the Byzanine Empire, 2 vols, Madison and Milwauke 1964.

— Vryonis., Byzantine Circus factions and Islamic Futwa organizations, in Byzantinische Zeitschrift, LVIII, 1965.

— بينز (نورمان) : الامبراطورية البيزنطية ، ترجمة دكتور حسين مؤنس ومحمود يوسف زايد ، القاهرة ١٩٥٧ .

— رأفت عبد الحميد (دكتور) : الدولة والكنيسة ، الجزء الثانى : قسطنطين ، القاهرة ١٩٨٢ — الدولة والكنيسة ، الجزء الثالث : أثناسيوس ، القاهرة ١٩٩٨٣ — الدولة والكنيسة ، الجزء الرابع : ثيودوسيوس وأمبروز ، القاهرة ١٩٨٤ .

— هسى (ج. م) : العالم البيزنطى ، ترجمة دكتور رأفت عبد الحميد ، القاهرة ١٩٨٤ .

— وسام عبد العزيز (دكتور) : أضواء على مجتمع القسطنطينية ، دراسة فى التاريخ الاجتماعى لمدينة قسطنطين حتى نهاية القرن الحادى عشر الميلادى ، مجلة كلية الآداب — جامعة المنصورة — العدد الخامس .

— ويلمان (بول) : ثيودورا ، جزءان ، ترجمة ونشر دار الروائع ، بيروت ١٩٦٥ .